وزارة الثقافة

رواية

محمود أحمد البسيوني

جذوة من نار

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

رواية

جذوة من النار

محمود أحمد البسيوني

(2025)

مشروع إصدارات غزة

مشـــروع إصـــدارات غـــزة

إشراف عام: جاد عزت الغزاوي

■ جـــذوة مـــن نـــار - محمود أحمد البسيوني

منشورات

وزارة الثقافة الفلسطينية

رام الله، فلسطين

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال لأغراض تجارية، دون إذنٍ مسبق من الناشر، كما ويمكنكم الحصول على الكتاب من موقع وزارة الثقافة الإلكتروني - "رقمنة" من خلال الموقع أدناه.

تصميم غلاف وإخـراج فني: غـــاوي خليل

تدقـيق لغوي: محمد شباط | نـــور عرفات

لوحـــــــة الغـــــلاف: جـــــاد عـــزت الغـــزاوي

All rights are reserved

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher. You can also get the book from the Ministry of Culture website through the website below.

www.moc.pna.ps/listBooks.php

رواية

جذوة من نار

محمود أحمد البسيوني

(2025)

رواية

جذوة من نار

محمود أحمد البسيوني

(2025)

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية

(ps-2025-80)

الواصفات:/أدب//رواية//غزة/

يتحمل المؤلف/الناشر كامل المسؤولية القانونية عن مُنتجه.

إهداء

***إلى أشجار البرتقال التي اعتصرت حزنًا**

على ضياع فصول ثمارها.

المقدمة

تسلّلت نكهة القهوة إلى أعلى قمةٍ لوصفٍ يفوق المزاج، كمن يوجّه بصره نحو الشّاسع العميق، أتناول الفنجان الأوّل بعد انقطاعٍ دام ثلاثة أشهر، زادت الطّوابير التي لا زالت تحتلّ المراكز الأولى في أولويّات الناس، طابورٌ آخر للحصول على القهوة، والتي أعتبرها والكتابة حاجتين أساسيّتين من حاجات الإنسان التي غاب عن «ماسلو» إدراجها في سلّم حاجات البشر الشهير، وأرى فيها ضرورةً لكلّ إنسانٍ: أن يجلس مع مكنونات قلبه وعقله، يريح جسد الهموم، ويستنهض روح الذّكريات...

يقف النادل بالقرب منّي، ويراقب قهوتي التي اعتقد أنّي أوشكت على الانتهاء منها، ولا يعلم أنّي أطيل في الشّرب، كلّما بدأت القهوة بالتّناقص، واندمجت في الكتابة أكثر فأكثر...

غابت فيروز الصّباح التي اعتدت سماعها مع نكهة الحبر السّائب فوق الأوراق، النّادل يهمس لأصدقائه مشيرًا بنظره نحوي، لعلّه يعرفني! أم أنّهم يتساءلون هل في هذه الحرب وقتٌ للكتابة والتّفكير؟؟! أم أنّهم يريدون الحديث معي بأمور الحرب فأتوقّع لهم ما سيكون، أو يريدون أن أخبرهم بموعد انتهاء الحرب؟! أم أنّهم يودّون سماع أحاديث الخيال البعيد عن واقع هذ الحياة المغموسة في الخوف والتّعب؟!... على كلٍّ لم يكن شيء من هذا ولا ذاك.

اقترب النّادل من طاولتي وراقبني عن كثب، ثمّ اقتحم جلستي وأخذ فنجاني الذي بقيت في نهايته الرّشفة التي أحبّ بقاءها؛ لأرتشف النّهايات مع انتهائي لفكرةٍ ما في كتاباتي...
علمت وقتها أنّه لا يتابعني، وأنّه غير مهتمٍ بي ولا بكتاباتي، إذ كان يراقب فنجان قهوتي ويراقب كلّ الفناجين التي نزلت على الطّاولات، حتى يجمعها ويغسلها سريعًا؛ ليقدّمها لآخرين، وذلك لشحّ البضائع في غزّة، وصعوبة العثور على فناجين للقهوة.... مئة يومٍ من الحرب مضت، صار فيها الأكثر رغبة أن نبقى على قيد الحياة، وها أنا اليوم أجري داخل نفسي وخارجها؛ كي أعيد لذاتي هويّتي وأكتب عن مجريات الحرب لأصف ما سمعت وشاهدت وما أصابني من ألم وجراح.

***جدران الذاكرة أقوى من انهيار المباني في المدينة**

بيـن تناثـر الـرّكام توقّـف الوقـت علـى مـرأى النّاظريـن بحدقـة الخـوف، وتوقّـف القلـب عـن الخفـق نبضـة للبحـث فـي جسـد الحيـاة ترقبًـا لمعرفـة المجهـول، بعـد أن اهتـزّت المدينـة بالقصـف.

الصّـوت الـذي اختـرق آذان الجميـع جمّـد حركـة النّـاس فـي مشـهد صمـتٍ ينحنـي للذّهـول مـن هـول الغبـار الـذي ابتلـع الرّؤيـا وأطعـم الحناجـر عبـق الاختنـاق.

كالأشـباح يخـرج النّـاس مـن بـاب المـوت، يجلـس أحمـد بجانـب الطّريـق يحـاول مسـح الهـواء أمـام ناظريـه، علّـه يميّـز الوجـوه، يسـمع صـوت الخارجيـن مـن فوّهـة الانفجـار، يـرددون: «اقتحمـوا مشـفى الشّـفاء»!

انسـكب نحـوه شـابٌ ثلاثينـي ارتكـز علـى جلوسـه، وقعـد علـى قدميـه بجـواره محـاولًا اسـتعادة أنفاسـه التـي فقدهـا مـن الرّكـض فزعًـا.

حيـن حـاول أحمـد التحـرك بعيـدًا عـن الخطـر، أوقفـه يـزن محـذّرًا إيـاه مـن الطّائـرات الصّغيـرة المسـيّرة التـي تحـوم فـي السـماء، وتختـرق المسـامع وتفجـر القلـوب.

عيناهمـا تراقبـان سـيدةً سـقطت كمـا سـقط كثيـر مـن القاطعيـن للطّريـق المقابـل لهـم، تزحـف نحـو طفلٍ وقـع علـى رصيـف الطريـق مـن رصـاص «الكوادكابتـر» المـار فـوق الـرّؤوس، الخـوف يكبّـل الشـباب ويمنـع تحرّكهـم للإنقـاذ، وأعينهـم تفضـح تسـاؤلاتهم، أهكـذا نبقـى عاجزيـن أمـام آلـة المـوت؟!

حركة الطّفل دلّت على بقائه على قيد الحياة، وأمّه التي تدنو منه ببطءٍ شديد تترك خلفها بقعًا حمراء تدلّ على إصابتها إصابةً بالغة، إصرارها على الوصول إلى ابنها جعلها لا تأبه لنزيفها، ولا تسمع صراخ من حولها، وكيف تتوقف عن نجدة ابنها وهو الأغلى من روحها؟

لم يحتمل أحمد قيود الخوف، غالب العجز ونفض يد يزن التي كانت تتشبّث به؛ ليحول بين رغبته في الإنقاذ، وبين تحرّكه نحو تعرّضه للإصابة بالرّصاص.

ركض حانيًا رأسه نحوهما، وكان الرّصاص يلاحق خطواته حتى قذف نفسه باتجاه الجدار الملاصق لهما، قد أدرك أخيرًا أنّ نجاته لم تكن ضعفًا في مراقبة فوّهة النّار له، بل انشغالًا منها عنه للقضاء على آخرين كانوا قد قطعوا الطريق الموازي، وصل ليكون شاهدًا حيًّا على موت الأمّ وطفلها بجوارها والتي لم تستطع حتى أن تحتضنه قبل الموت.

نادى يزن عليه لأن يعود سريعًا، إذ وجد منفذًا قريبًا من مكانهما، يذهب بهما بعيدًا عن هذا المربّع الذي حاصرته أدوات القتل.

تدارك نفسه سريعًا وامتلأ وعيه بخطورة المكان، استغلّا معًا انتقال الحوّامات القتالية الصّغيرة إلى طريقٍ آخر فانتقلا بعيدًا عن مربّع الشّفاء الذي يريد العدو إغلاق منافذ الوصول إليه وإخلاءه من النّاس تمهيدًا لاقتحامه.

كان يـزن وأحمـد يتحـرّكان معًـا مـن نقطـةٍ إلـى أخـرى، وكأن أحدهما يعـرف الآخـر منـذ زمـن، كلاهمـا علـم أنّ الابتعـاد الآن عـن محيـط مبنـى الشّـفاء هـو تفـادٍ للخطـر الأكبـر.

توقّـف يـزن فجـأةً حيـن رأى مرافقـه أحمـد يجلـس متكـوّرًا حـول جسده بعـد سـماعه دوي صـاروخٍ اقتحـم الأجـواء قاصـدًا إلـى تدميرٍ جديـدٍ كان بعيـدًا عنـه، عـاد متجهًـا نحـوه وأمسـك بيـده وأخـذ يجـرّه بعيـدًا عـن الخطـر، وصـولًا إلـى منطقـة «تـلّ الهـوا» وقـد قـرّر اللّجـوء إلـى مبنـى الهـلال الأحمـر الفلسـطيني ليكونـا أكثـر أمانًـا هنـاك.

ولكـنّ القنابـل التـي كانـت تسـقط فـوق المبانـي والطّرقـات هـي مـن حـدّدت مسـارهما الـذي وصـل بهمـا إلـى مدرسـةٍ تابعـة للأونـروا واضطـرّا إلـى اللّجـوء إليهـا والمكـوث فيهـا، حتّـى ينحـدر هـذا النّهـار عـن جبـل الأخطـار.

حـلّ المسـاء، والتقـط الجميـع أنفاسـه وسـط ازدحـام العائـلات، وصـوت أنيـن الجرحـى والمنهكيـن مـن قطـع مسـافات طويلـة هربًـا مـن المـوت، الأطفـال يبكـون هلعًـا وجوعًـا، وعيونهـم تأبـى النّـوم، فـي عقولهـم أسـئلة كثيـرة لا يجـدون عنهـا جوابًـا يرضـي فضولهـم الأكبـر مـن كونهـم يريـدون تصديـق الحقيقـة.

خيّـم مـع النّـوم صـوت الانفجـارات البعيـدة المتذبـذب علـى أحبـال سـمعهم، كان الجـدار الملاصـق للمدرسـة مـلاذًا لإراحـة أجسـاد المتعبيـن مـن الرّكـض، وقـد اشـتكت المدرسـة الازدحـام منـذ اللّحظـات الأولـى للنّـزوح.

الحرب أكلت من رأس الحياة، وأسقت اليقظة من خمر النّجاة.
كان يـزن يفكّـر فـي صديـق الحـرب بعـد أن اطمـأنّ علـى أسـرته التـي أصبحـت فـي بيـت العائلـة، ولكـن هـذا الـذي وضـع رأسـه علـى كتفـه وكأنّـه يلقـي بهمومـه وأحزانـه فـوق حملـه كيـف سـتكون الحـرب غـدًا حيـن تلفـظ راءهـا؟؟ أيّ حـبٍّ سـيحتوي هـذا الشّـاب الـذي فقـد كلّ عائلتـه دون أن تكلّـف العقـارب نفسـها لتعطيـه بعضًـا مـن الوقـت لدفنهـم أو إلقـاء نظـرة وداعٍ أخيـرة عليهـم؟! كيـف يمكـن أن يشـقّ طريقـه دون سـندٍ أو زوجـةٍ تعـدّل موازينـه وتمسـح عن قلبـه الهموم؟!
غلـب النّعـاس المشـبّع باستنشـاق الغبـار الـذي احتـل الهـواء ضجيـج الأفكار وبـدت اللّيلـة صافيـةً هادئـة، والنّجـوم تلمـع مـن جديـد مبشّـرة بإشـراقة شـمسٍ سـاطعة فـي الصبـاح علـى الرّغـم مـن لسـعة البـرد فـي هـذا الليـل مـن بدايـات الشّـتاء، لقـد غـط الجميـع فـي نـوم عميـق لكـنّ أصـوات الانفجـارات التـي صدحـت بهـا المدافـع فـي الفجـر أيقظـت الجميـع علـى فصـل جديـد مـن الترقـب والحـرب.
لقـد اغتالـوا صيـاح الدّيـك وأفسـدوا عبـق الصّبـاح، ولـم نسـمع أذان الفجـر بعدمـا دمّـروا الجوامـع المحيطـة بالمـكان.
«أحمد، يجب أن نخرج من المدينة الآن، الأمور تزداد سوءًا»
«أين سنذهب؟!»
«سنتحرّك إلى خان يونس حيث أهلي»
«ولكن لماذا أنت تسكن في غزّة وأهلك في خان يونس؟»
«لأنّـي أعمـل فـي مشـفى الشّـفاء، اسـتأجرت شـقةً لأكـون قريبًـا مـن عملـي»

«المشفى حوصر أيضًا، لم أستطع حتى الذّهاب إليه لأبحث عن ناجين من أهلي».
أراح جسده على الجدار منهزمًا، مسقطًا رأسه إلى الخلف، مستأنفًا حديثه متسائلًا بصوت يشوبه الانكسار: «أنسيت أن لا أهل لي؟ أين سأذهب أنا؟»
قطع يزن عليه حبل تساؤله وقال له: «لقد وضعك القدر في طريقي وأنا لن أتخلّى عنك ستذهب معي ولا تخالفني في ذلك. هيّا بنا نتحرّك باكرًا مشيًا على الأقدام حتى نجد سيارةً تقلّنا إلى هناك».

في الطّريق كان الحديث عن مشفى الشّفاء، وكيفية قصف المحتل للبوابة الرّئيسة وعن حال الناس الذين حوصروا داخل المشفى، لقد كان في فناء المشفى من النّازحين أكثر بكثير من عدد المرضى والأطباء، كان المشفى الذي يعدّ أكبر المستشفيات وأقدمها في قطاع غزّة، يعجّ بالنّاس الذين احتموا فيها لطبيعتها الإنسانيّة.
لقد أطلق الجيش أسرابًا من «الكوادكابتر» تطلق النّار حول الناس ونحوهم، ليسرعوا في إخلاء مستشفى الشفاء، ثم تحرّكت الدّبابات لتحاصر المكان، لقد نجا يزن وبعض زملائه بأعجوبة؛ لأنّ مبنى قسم الأشعة متاخم لجدار محيط المشفى ممّا سمح لهم بالهروب قبل أن يحكم المحتل حصاره..

صافح يزن أحمد بكفّ حنينه ورعايته وشغف اهتمامه، وطال الطّريق مشيًا دون أن يجدا أي سيّارةٍ تقلهما، وفي سؤال أحمد ليزن «هل تواصلت مع أهلك؟ هل هم بخير؟» أجابه أنّه لا يعرف شيئًا عنهم فقد توقّفت الاتّصالات على الرّغم من أنّهم يسمعون من النّاس أنّ القصف ليس في وسط المدينة فحسب، وإنّما يصل أيضًا إلى كلّ مكان شمالًا وجنوبًا.

لم يكن الطّريق مرصوفًا بالسّلامة، بل كانت المخاطر تحفّهما من كلّ جانب، لا يعرفون أيّ المباني التي ستنهار أمامهم، وأيّ الأراضي التي سيقتلعون الطّين منها، وأيّ المراكز التي سيتطاير ركامها، وأيّ عربةٍ ستشتعل، وأيّ شخصٍ ستستهدفه طائرات الاستطلاع، التي لا تغادر سماء غزّة قط.

يسمع أصوات انفجاراتٍ ضخمة، كأنّها قنابل تسقط على السّجل المدني لمسح عائلاتٍ منه، وكم تمنّى أحمد لو أنّها فعلت ذلك معه بدلًا من أن يتوه في سجلّات الحياة، ويعاني من ذاكرة الفقد والضّياع.

الموت ليس أكبر مصيبةً من الفقد...

توقفت الأقدام في منطقةٍ تسمى «وادي غزّة»، يحملون كثيرًا من الأمتعة وجهتهم نحو الجنوب، مثلما طلب المحتلّ منهم، لكن إلى أين؟! وكيف السبيل إلى هناك والمحتل يغلق منفذ الذّهاب إلى الجنوب، ويحاصر المنطقة بدبّابته ويقيم الحواجز ويطلق النّيران على النّازحين من الشّمال، لقد علمنا عبر مواقع التّواصل الاجتماعي التي ما زالت تنبض بهواتف بعض الذين يحملون حزم إنترنت: أنّ المحتل قطع طريق البحر، ووقف النّزوح من خلاله، وأنشأ حاجزًا يسمى «الحلّابة» صنعه على طريق شارع «صلاح الدين»، وطلب أن يكون النّزوح عبر هذا الحاجز.

الوقت الذي سيقطعون به المسافة من غرب المدينة إلى شرقها ليس طويلًا، قطاع غزّة يمتدّ طولًا ويقصر عرضًا، ولكنّه في هذا الوقت محفوفٌ بالمخاطر مشيًا على الأقدام.

سيخيّم اللّيل دون وصولهم إلى خان يونس، والخروج أصبح ضرورةً ملحّة، لا يعرف كثير من النّاس الذين تركوا بيوتهم إلى أين وجهتهم، يحملون الخوف فوق ظهورهم، ويتحرّكون بعيدًا عن الدّمار والخراب، وتسليط القنابل، وصوت الموت الذي ركّزه العدوّ في مناطق الشّمال، ومحيط مشفى الشّفاء في غزة. لم يكن الجنوب في منأى عن هذه العاصفة المتفجرة التي أطلقتها الطبيعة العسكرية، لقد اعتلت طائرات العدو سماء رفح،

هذه المحافظة التي لجأ إليها أكبر عدد من النازحين، كان الهجوم على المباني السكنية في حي الشابورة جنونيًا وكان الحدث قريبًا جدًا من مكان سكن فلسطين أخت يزن، لقد تسربت معلومة أن الحي يخبئ محتجزين يهود وعلى إثر ذلك شن الجيش الإسرائيلي مطحنة على أهالي المنطقة.

لقد حاولت أمهما سجى الاتصال بابنتها فلسطين، لكنّها لم تفلح في ذلك، ولم تحتمل الوقوف عقب سماع الأخبار، فنزلت إلى الشارع تبحث عن سيارة تحملها إلى ابنتها ورفضت أن يصحبها ابنها الذي بقي يتابع الاتصالات لعلّ هدهد الأخبار يأتيه بنبإٍ يطمئن به عن يزن، الذي فقد الاتصال به، وبقيت زوجته تجلس بجانبه تتابع ورود أي معلومة عنهما.

في ذات الوقت كانت ليان أختهم في مشفى ناصر الطبي، تحاول تغطية تقرير صحفي حول خدمات المشفى واحتياجات المرضى، وكان معها زميلها المصور الصحفي عصام.

يصنّف العدو حامل الكاميرات للتغطية الإعلامية كمن يحمل القاذفات للتصدي للعدوان، لحظات وبينما ليان تكتب تقريرها إذ بانفجار بجوار البوابة لم يكن صوته مدويًا لقد كان من العيار الخفيف، لكنّه صدّع قلب ليان التي شعرت بمكروه أصاب زميلها عصام فركضت بحثًا عنه، لم يكن زميلها فحسب، وإنما كانت علاقة ود، وحميميّة أيًضا تعلو فوق سطح تعارفهما، لقد كان زميلها في الجامعة وتخرجا معًا، واستمرا في العمل معًا، وآمنا سويًّا أن الإعلام بوابة معرفة العالم بالقضية الفلسطينية.

أرادت الحرب أن تذهب بغيم العشق الذي كاد أن يمطر حبًّا فوق رأسيهما، استشهد عصام قبل أن يعلن لها عن حبه أمام جمهور عينيها المتلألئتين، وهي تراقب ملاطفته لها، لا مشهد هناك للصورة، اجتمع الصحافيون والإعلاميون، والذين اعتادوا اختراق الحواجز والموانع لالتقاط صورة للحدث، ولكن الصاروخ لم يترك لهم ملامح له، وقد تناثرت الكاميرا أجزاء حول جثمانه.
لم تهتم سجى بالقصف الذي قلب موازين الطرقات والمواصلات والاتصالات، بقيت في طريقها إلى رفح حتى نجحت فلسطين في الاتصال بها، وإخبارها أنّها بخير ولا داعي لتعرضها للخطر وخاصة أن المنطقة بأكملها تتعرض للقصف.
تتآمر الاتصالات على سجى حين تفتح خطوطها كي تمدّها بخبر اطمئنان من جهة ومن جهة أخرى خبر انهيار ليان، المسافات لعبة الحرب الأصعب، مرحلة الحركة الأبطأ، والوقت الأطول في الوصول.
الوصول إلى أين؟ هي الخيارات التي لا نختارها ولا نذهب لفرضها، بل إنّنا نكون بين الاختيارات حائرين أين يكمن الصواب.
عادت سجى أدراجها إليها بعد أن أخبرتها أن تعود إلى البيت فورًا.
تشن هذه الحرب على قطاع غزة بجغرافية الأماكن، ولكنَّ تدبرًا في آليات القتال تجد أن كل فرد فيها يخوض حربه الخاصة، وفي كل الأمور لا رابح ولا خاسر في أي حرب.

شعرت سجى بأنها خسرت معركة كبيرة لم تدخل في تشكيل القتال فيها، ولم تفرض نفسها مقاتلة، لكنّها حمّلت نفسها ذنب خسارتها؛ لأنّها تقاتل منذ زمن بعيد من أجل الحفاظ على أسرتها، ولأنها لم تفلح في الوصول إلى ابنتها التي تأخرت في حضن اطمئنانها وضمها لها، ولم تستطع أن تكون بجوار ليان في حدث الخوف والفقد.

ساعتان من القنابل فوق رؤوس البيوت المكتظة في مخيم الشبورة أكثر من مائتي شهيد لتخليص أسيرين، تفجير عدد كبير من المنازل، لقد كنت وقتها أكتب في الرواية على رصيف إحدى الطرقات، وانتفضنا جميعًا هربًا من مخالب الموت، حملت دفتري بيدي وحقيبتي بيدي الأخرى، وركضت ثم توقفت، ثم ركضت...

هكذا كنّا، لا نعرف اتجاه الخطر واتجاه الأمان، لا نعرف ماذا تختار لنا الأقدار، وكيف لا تصيب توقعاتنا على الرغم من خبرتنا في الحرب، إنه الخوف، وأصعب الخوف مجهول يقذف بقنابل الموت.

طلبت فاطمة زوجة أحمد منه قبل أن يخرج من البيت إلى تسوّق بعض الأشياء أن لا يتأخّر، وحاولت أن تحول بينه وبين الخروج ممسكةً بيده بطريقةٍ لم يفهم منها أحمد وقتها أن هذا الحزن في عينيها لم يكن خوفًا من الحرب فحسب، وإنما كان يخبئ

أيضـا خوفًـا مـن مجهـولٍ أشـد خوفًـا مـن الخـوف، ولكـن الضّـرورة والمسـؤولية تحتّـم عليـه الذّهـاب؛ للحصـول علـى أولويّـات الحيـاة مـن مـاءٍ وزاد، وخاصّـة أن البيـت المكـوّن مـن ثلاثـة طوابـق يسـكنه والـداه، وعمّـه الوحيـد الـذي كان يعيـل عـددًا كبيـرًا مـن الأفـراد، وقـد نـزح أبنـاء عمّـه المتزوّجـون مـع أولادهـم مـن بيوتهـم المتضـرّرة ومكثـوا معهـم.

أحمـد وحيـد والديـه، ولديـه أربـع أخـواتٍ، إحداهـنّ أختٌ متزوجـة، نزحـت أيضًـا هـي وزوجهـا وأبناؤهـا مـن بيـت لاهيـا، المنطقـة المتاخمـة للحـدود مـع المسـتوطنات الإسـرائيلية.
سبعةٌ وثلاثون روحًا يسكنون في هذا البيت.
لقـد كانـت سـاعةً فارقـةً فـي حياتـه، شـعر بانقبـاض غريـب فـي قلبه، وهـو يتجـوّل بالسّـوق لا يعـرف سـبب هـذا الضّيـق الخانـق لصـدره وأنفاسـه، ولكنّـه سـمع صـوت انفجـارٍ كبيـر هـزّ أركان مخيـم جباليـا، وتـلاه انفجـارٌ آخـرُ.. فآخـر.. فآخـر، والنّـاس تركـض كأنّ القنابـل تلحقهـم، حتـى اسـتلقى الجميـع علـى الأرض، واعتلـت تلـك المنطقـة التـي يقطـن فيهـا أحمـد سـحابةٌ بيضـاء سـوداء، يعلـم أهـل المدينـة أنّهـا وجـه الدّمـار، وأنّ القصـف أصـاب المبانـي، فتصاعـدت سـحبٌ مـن انفجـار البـارود وغبـار الـرّكام.
ركـض أحمـد نحـو منطقتـه مخترقًـا الضّبـاب الأسـود، دون أن يأبـه لنـداءات التّحذيـر مـن اسـتئناف القصـف كمـا كان العـدوّ معتـادًا أن يفعـل.

بـدأ يلـوّح بيـده، يمسـح مـن أمامـه الدّخـان والغبـار، ويضـع ثوبـه علـى وجهـه، يحمـي أنفاسـه مـن الاختنـاق، لكنّـه جلـس بالقـرب مـن مـكان بيتـه، وأخـذ يصـرخ: أيـن البيـت؟! أيـن البيـوت؟! يمسـح ويلتـفّ حولـه ويختنـق، يصـرخ ولا يسـمع، يـرى ولا يفهـم، يبحـث ولا يجـد، يتخيّـل ويؤمـل نفسـه بالسّـراب.

اجتمـع النّـاس حولـه يحاولـون استيعاب مـا حـدث، ولا يجدون سـوى الصّـراخ، والبـكاء، والدمـاء التـي اكتسـت بلـون الغبار.

وصلـت الإسـعافات وسـيّارات الدّفـاع المدنـي، وحـاول الجميـع الالتفـاف حـول المبانـي التـي قصفـت، إنّـه مربـعٌ سـكني انهـار بالكامـل فـوق رؤوس الآمنيـن.

يجلـس أحمـد بعيـدًا عـن مواضـع البحـث، يلطـم علـى رأسـه، ويضـرب أفـكاره التـي تحـاول تذكّـر وجوههـم، كأنّـه يرفـض تقبّـل رحيلهـم عـن الحيـاة.

الحقيقة أكبر من معجزة التّخيل.

كـم عـدد الموجوديـن؟ فـي أيّ طابـق يمكثـون؟ هـل هنـاك أطفـال؟ هـل خـرج أحـد؟ كثيـر مـن الأسـئلة تـدور فـي عقلـه، أجـاب عنهـا تحليـق الطّائـرات الحربيـة المقاتلـة والتـي أخـذت تغيـر صوتًـا علـى المـكان، تنـذر بقصـفٍ قريـب، ممّـا اضطـرّ الجميـع للإخـلاء مـن المـكان، وخاصّـة أنّـه بعـد سـاعةٍ مـن القصـف لـم يكـن هنـاك نـاج واحـد سـوى بعـض الأصـوات التـي سـمعوها تحـت ركام أحـد البيـوت المجـاورة لبيـت أحمـد، ولـم يسـتطيعوا إزالـة الـرّكام عنهـا، فوعدوهـم بالعـودة إليهـم.

وقتها اضطرّ المنقذون لحمل أحمد الذي ما زال جاثيًا على ركبتيه من هول الصّدمة، ليبعدوه بالقّوة عن المكان الذي انهالت عليه القذائف مرةً أخرى.

وصل يزن مع رفيقه أحمد إلى طريق «صلاح الدّين» الممتلئ بحركة النّاس الذين يحملون بعض حاجاتهم الخاصة بالعربات المجرورة بالحمير وبعض السّيارات، التي ترجّل عنها ركابها بعد أن أبلغ المحتل الجميع أنّ العبور ممكنٌ فقط مشيًا على الأقدام.
لم تكن المعارك التي شنّها الاحتلال على غزّة من قبل مثل هذه الحرب، قد اعتاد المحتل أن يبدأ معركته التّالية من حيث انتهت معركته السّابقة، لكنّه بدأ هذه الحرب من حيث انتهت الحرب العالمية الثّانية!
انصهر أحمد ويزن في الازدحام، وساعدا امرأةً كانت تحمل أغطيةً كثيرة فوق رأسها، وأبناؤها من حولها يشدّونها خوفًا وتمسّكًا، وتلك الأسرة الملتفّة حول الأب الذي يسير شاخصًا ببصره نحو النّجاة بهم، وصوت إطلاق النّار الذي لا يتوقّف في الهواء.

عبرا الحاجز المقام بأعجوبة، وقد أغلقه المحتل بعد إسدال اللّيل ستارة الظّلام وطلبوا من النّاس المكوث في المكان حتّى الصّباح.

خـان يونـس مـا زالـت بعيـدة جـدًا، وقـد ازدادت بعـدًا بحلـول هـذا الظّـلام الـذي يخطـر فيـه التّحـرك، ولأنّ وجهـات النّازحيـن أغلبهـا غيـر معروفـة بعـد، وكان هدفهـا النّجـاة مـن المـوت، خيّـم بعضهـم فـي مسـاحاتٍ وجدوهـا فارغـة بجانـب الطّريـق، واتّجـه بعضهـم الآخـر نحـو مـدارس الأونـروا، وكان أحمـد ويـزن مـن ضمنهـم.
استطاع يـزن أن يشـحن هاتفـه فـي المدرسـة معتمـدا علـى بطاريّـة شـحنٍ مـن الطّاقـة الشّمسـية، وفـور تشـغيله للهاتـف توالـت الرّسـائل عليـه مـن زوجتـه ووالدتـه وإخوتـه قلقًـا عليـه.

حـاول أن يتّصـل بهـم لكنـه لـم يفلـح، وأرسـل للجميـع رسـائل نصيّـة، غيـر عالـمٍ إن كانـت وصلـت إليهـم أم لا، وقـرّر النّـزوح إلـى بيـت عمّتـه فـي منطقـة «النّصيـرات» المحطّـة الأقـرب إليـه، حـاول الاتّصـال بهـا لتمهيـد الأمـر؛ خاصّـة أنّهـا مقاطعـة لوالـده منـذ زمـنٍ طويـل ولكنّـه زوج ابنتهـا، فأمـل أنّهـا لـن تـردّه خائبًـا.

نـام الرّجـال فـي سـاحة المدرسـة ومحيطهـا، ودخـل النّسـاء والأطفـال وكبـار السّـن إلـى الفصـول.
لـم يطلـع البـدر فـي سـماء هـذا اللّيـل علـى الرّغـم مـن انتصـاف الشّـهر، مـن كثـرة السّـواد الـذي اعتلـى السّـماء فـي هيئـة سـحبٍ سـودٍ تحجـب الرّؤيـة عنـه. لـم يسـتطع الكثيـر النّـوم مـن شـدّة البـرد، وارتفـاع صـوت طائـرات الاسـتطلاع التـي أطلـق عليـه الغزيّـون مصطلـح «الزنّانـة»، وذلـك لربطهـم صفـة إزعاجها بالزّن المسـتمر.

لـم تتوقـف المدافـع عـن الضّـرب ولا الطّائـرات عـن التّحليـق، كانـت ليلـة لـم تصمـت فيهـا الحـرب للحظـةٍ واحـدة.

النـدبـة التـي يتركهـا الفقـد فـي القلـب أكبـر بكثيـر مـن الجـرح الـذي تتركـه قنبلـة علـى الجسـد، لـم يكـن الأمـر سـهلًا بالنسـبة لفتـاة فـي عمـر رسـم الأحـلام أن تسـتوعب اغتيـال اللوحـة والألـوان، كيـف يمكـن أن تمسـح ليـان مـن مخيلتهـا صـورة عصـام؟ وكيـف تتجـاوز فكـرة أنهـا حتـى لـم تلـقِ عليـه نظـرة الـوداع؟
بقيـت أمّهـا بجوارهـا تربـت علـى قلبهـا وتعيـد لهـا همّتهـا، التربيـت علـى الكتـف، والمسـح علـى الـرأس، وحتـى الأحضـان التـي تحـوي الدمـع لـم تكـن الملجـأ الحقيقـي للخـلاص مـن أوجـاع الفقـد والخـوف والحـزن، لكـن كانـت مشـاهد الحـرب يطـرد بعضهـا بعضًـا، لنـرى الوجـع الأكبـر يزيـل الأصغـر فالأصغـر متكدسـين معًـا فـي غرفـة الاحتمـال.
لـم تكـن هـذه الحـرب للحـزن الطبيعـي، ولـم تعـد الأرض مكتظـة بالنازحيـن فحسـب، وإنمـا بالخـوف أيضـا الـذي غصّـت بـه الطرقات. أوجـه الحـزن المختلفـة والمتشـكلة بفعـل الخـوف المسـتمر؛ ليـان يتملكهـا الخـوف علـى يـزن، لا تـدري مـا حـلّ بـه؟ والقلـق علـى أختهـا يخطفهـا مـن ذلـك الخـوف، فتقعـد حسـرة أمـام صـور تقفـز فـي عقلهـا لأخيهـا الأكبـر فـي ديـر البلـح كلمـا سـمعت قصفًـا هنـاك، ثـم تبكـي علـى حـال والدهـا الـذي انقطعـت أخبـاره منـذ اشـتعال الحـرب.

كل هذا الاكتظاظ المشاعري والانشغال الفكري، يفضي إلى عدم إنصاف التعبير عن الحزن في الحادثة الواحدة. تصطف الأوجاع في طابور وجداني لا يسلط الإعلام كاميراته عليها، لتلحّ الحاجة إلى استراحة للصراخ، وإلى معابر غير تلك التي تدخل المعونات عبرها، بل للخروج منها بصرخات الاحتمال والبكاء.

أخبرتها أمّها أن هذه الحرب إن ضعفنا أمامها ستلتهمنا جميعًا، فنموت قبل الموت بالخوف والحسرة، سنهزم قبل الهزيمة انكسارًا وضعفًا.

تحرّك يزن وأحمد مع صحو نهارٍ جديد، وحاول يزن الاتّصال بعمّته مراتٍ عدّة، ولم يفلح اتّصاله، حتى وصل إلى الحيّ الذي تسكن فيه، ففوجئ بالدّمار الذي حل ببيتها. التفّت حوله ليسأل الموجودين عن مصيرهم، فوجد أحمد جاثيًا على ركبتيه يضمّ جسده حوله متكوّرًا مشدود الأعصاب، توجّه نحوه يسأله عن حاله، لكنّه لم يجب يهزّه فيتحرك كقالبٍ واحد، يئنّ ويضغط على أسنانه وأعصابه، ويزداد انكماشًا، يجتمع حولهم بعض الناس، ولكن لم يستطع أحدهم فعل شيء لأحمد، هو فقط بدأ يحلّ نفسه. أخذ صديقه يمسح على رأسه، ويجلس بجانبه، ويتركه كأنّه يصرخ داخله ويكتم انفجارًا مدويًا في ذاكرته، حين يرى انهيار بيتٍ وفقدان أسرةٍ، يخشى تكرار مشهد الفقد والفراق.

سأل يزن المجتمعين ماذا حصل لبيت عمّته؟ فأخبروه أن الجميع بخير، وأنّهم خرجوا قبل القصف ونزحوا إلى رفح.

بقي يزن بجانب أحمد ظلّ يربت على قلبه، ويستنهض قواه لاستكمال الطّريق، لاحظ خروج شاحنةٍ من الشّارع الموازي للمنطقة، ركض نحوها وإذ به جار عمّته الذي يعرفه جيدًا، سأله عن وجهته وعلم أنّه متجهٌ نحو الجنوب عبر طريق البحر الذي سمح المحتل العبور من خلاله اليوم، سحب يزن صديقه بقوّة نحو الشّاحنة واعتلوا الأثاث وأشاروا إليه بالتّحرّك.
حركة النّزوح على طريق شارع الرّشيد الموازي للبحر تذكّر النّاس بتاريخ النّكبة إذ يعود مسلسل «التّغريبة» لأذهانهم بفارق اختلاف حجم الدّمار، وطرق النّزوح، وعدد النّاس المتضاعف عن ذاك الوقت، مليونان ونصف مواطن في بقعةٍ لا تجاوز 365 كيلو مترًا مربعًا.
يتكدّس النّاس نساءً ورجالًا، شيوخًا وأطفالًا في شاحناتٍ كانت تقلّ الأغنام سابقًا، أو تستخدم لأغراض نقل البضائع، وهذه السّيارات الصّغيرة التي تتّسع لعددٍ محدود من الرّكاب أصبح يركبها اليوم أضعاف أضعاف عددها الطّبيعي.
توقّفت الشّاحنة فجأة، طار يزن إلى الوراء بالمرتبة التي كان يجلس عليها، وتناثرت الأشياء الصّغيرة من حولهم، بقي أحمد مع أولاد صاحب الشّاحنة يحتضنهم خشية السّقوط، تعالت الصرخات، قصف.. شهداء... جرحى...!!!

استنهض يزن نفسه بعد أن حمته المرتبة التي طارت معه وخفّفت عن جسده أثر الارتطام بالأرض، إذ بغمامةٍ سوداء تعتلي أفق الطّريق، فتقدّم نحو السّائق بعدما اطمأن على أحمد والأولاد، فوجده ملقىً على مقوده، تحاول زوجته تفقّده وحثّه على النّهوض، لكن الشّظية اخترقت عنقه، وصيّرته قتيلًا لتنطلق صرخات الزّوجة والأبناء الذين اجتمعوا حوله يستصرخون السّماء علّها تعيده للحياة.

كانت ضربةً قويّةً استهدفت سيارة مدنية لا يعرف نوعها من شدّة الدّمار الذي حلّ بها واشتعال النيران فيها، ممّا يدلّ على موت كلّ من كان فيها، جاءت الإسعافات مسرعةً لحمل المصابين، وساعد الصّديقان في نقل صاحب الشّاحنة، وبقيت أسرته برفقته، وبدلًا من الذّهاب حيث خطّط لهم، توجّهوا حيث خطّطت الحرب لهم.

ثم استأنفا المشي على الأقدام نحو الجنوب، وقد قطعوا مسافةً كبيرةً بالشّاحنة، ولم يبق إلّا القليل.
جاء المساء يجرّ معه الخوف؛ يركض كثير منهم نحو الوصول بعيدًا عن الظّلام، وبعضهم ممّن لا يحمل عنوانًا ليصل إليه، خيّم على أطراف الطّريق على الضّفة المطلّة على البحر كما يحدث كلما نشر المساء ظلامه، نصبوا الشّراشف والأغطية وصنعوا بيوتًا من قماشٍ يسترون أنفسهم بها، لا تكفيهم لسع البرد، ولا تحميهم من غوائل القصف.

استمرّ أحمد ويزن في المشي على الطّريق مستأنسين بوجود كثير ممّن نزحوا سابقًا، حتى وصلوا غرب خان يونس إلى منطقة تدعى «المواصي».
اضطرّا إلى المكوث في مخيّم المنطقة لتأخّر الوقت، وما زالت المسافة إلى المدينة كبيرة. فرغت بطّارية هاتف يزن، وأحمد فقد هاتفه في القصف على بيته، جلسا على الأرض بجوار سور مبنى مقصوف، وقد نجا من دماره السّور المحيط به.
الجهد الجسدي في المشي والحركة والصّور المتناثرة المتشابكة في عمق التّفكير وأجراس الخوف التي تدق دون انتظار أرهقت الأرواح، وأسقطت القدرة على الاحتراس من أيّ خطرٍ آخر. قد تكون السّرقة في ظل نومهما على جانب الطّريق دون غطاءٍ أو ساتر، يخفيهم عن أنظار العابثين فسادًا في الأرض.

أحد العاملين في مؤسسة خيرية، وفي منتصف اللّيل ساهم في توفير أغطيةٍ للنازحين الجدد، وأدلى بغطاءٍ واحدٍ أخير على جسديهما، إذ بهما يستيقظان فجرًا ملتحفين يحتضن بعضهما بعضا تحت هذا الغطاء، لطرد برودة هذا الشّتاء الذي لم تسقط أمطاره رفقًا بالخيام؛ لئلا تجرفها السيول، لكنّها لم تستطع حبس البرد القارس عن أجساد النّاس.

استيقظا بأضلعٍ مفكّكة، وجسد ثقيل لم يفرغ أحمال التعب، يتثاءبان، لا ينفكّ عنهما لنقص الأكسجين بسبب قلّة النّوم وقلّة شرب الماء

توجّهـا نحـو الصّنبـور الـذي تجمّـع حولـه مئـاتٌ مـن النّازحيـن بأباريـق وزجاجـاتٍ يريـدون ملأهـا بالمـاء، فطلـب يـزن مـن أحـد النّاجين مـن طوابيـر الفوضـى أن يعطيهـم شـربة مـاء حتـى يسـتطيعا اسـتكمال الطّريـق..

لـم تكـن الطّـرق المؤدّيـة وغيـر المؤدّيـة إلّا مشـاهد مختلفـة مـن التّهجيـر والنّـزوح والمعانـاة والدّمـار والخـراب والعجـز فـي البقـاء والمسـاعدة، كمـا أنّنـا نعـرف عـن الطّـرق ومـا عهدنـاه أنّهـا للنّجـاة والوصـول والسّـلامة والاسـتمتاع.

فـي غـزّة هـي للانتقـال مـن الصّعـب إلـى الصّعـب وفـي مشـاهدَ أخـرى هـي الانتقـال مـن المـوت إلـى المـوت.

حـاول أحمـد مـرارًا وتكـرارًا أن يقنـع يـزن بأنّـه يسـتطيع تدبّـر أمـره؛ لأنّـه وحيـد ويسـتطيع أن ينضـمّ لمجمـوع النّازحيـن فـي كل مـكان، لكـن يـزن ظـلّ يتمسّـك بـه ويؤكّـد لـه أنّ والدتـه سـتفرح كثيـرًا بقدومـه، وسـتغضب لـو علمـت أنّـه تخلّـى عنـه.

طـال الحديـث عنهـا وعـن حبّهـا ورعايتهـا وقـوّة شـخصيتها، ممّـا جعل أحمـد يسـأله عـن والـده الـذي عـرف منـه أنّـه غائـب عنهـم قبـل الحـرب، وأنّـه أحـد عمّـال إسـرائيل العالقيـن فـي الأراضـي المحتلـة، وقـد انقطعـت أخبـاره بعـد اقتحـام العـدو قطـاع غـزّة.

وصـلا أخيـرًا، وكان هنـاك مدخـلٌ طويـل يـؤدّي إلـى البيـت، بوّابـة كبيـرة مشـقوقٌ بـاب مدخلهـا، أربـع نخـلاتٍ مقسّـمة علـى طرفـي الممـر المزيّـن بالـورد، يدنـو إلـى شـجرة عنـبٍ كبيـرة، تمتـدّ أفرعهـا

على أعمدةٍ من خشب وحديد لتصنع مظلّة كبيرة بجانبها مضافة تحوي مكتبة.

أجلس يزن صديقه في المضافة، واستأذنه في الدّخول إلى أسرته، ما إن وصل باب البيت حتى سمع خطى والدته تركض نحوه، كأنّها أدركت قدومه، أو أنّها اشتمّت عطر وصوله؛ لتفتح الباب قبل طرقه وتحتضنه وتضمّه إلى صدرها بقوّة، وكأنّها تؤنّبه على غيابه الطّويل، وقلقها العميق.

شارك العناق زوجته علياء وابنه عبد الرّحمن، وانضم كل من راجي الأخ الأصغر وليان أخته الصّحفية، لقد كان المشهد بعيدًا عن عين أحمد، ولكن ليس ببعيدٍ عن مخيّلته وهو يترجم لوحةً على الحائط مرسومةً بدقّة الرّصاص وبعض الرّماد المصنوع بالألوان، لأشخاص علم أنّهم أسرة يزن كونه موجودًا بينهم، وعددهم ذاته الذي أخبره يزن به، اقترب من اللّوحة وهو ينظر إلى الأمّ بعناية متذكرًا حديثه عنها، مستوحيًا من وقفتها بجانب زوجها، كيف يتشابكان كغصنٍ يمدّ فروعه حوله، ووجد صورةً فوتوغرافية على المكتب لسيّدةٍ جميلة ينساب شعرها الأصفر على ملامح وجهها، وتلمع عيناها فتعكس خضرة البساتين، وأنت تلقي بنظرك نحوها، تشبه المرأة في اللّوحة المعلّقة، لكنّها بالألوان وأصغر بكثير وأجمل بكثير ومكتوبٌ أسفل الصّورة كلمة باللّغة العبرية لا يعرف معناها.

فجأة دخلت الأم مرحّبة:

«أحمد صحيح؟»

أجاب بتوتّر»: نعم، وأعتذر إن كنت قد حضرت هنا دون سابق معرفة»

-مقاطعة- «تعتذر على ماذا؟ أنت أيضًا ابني، ونحن أسرتك الجديدة». ضمّته بكلامها النّاعم واحتضنته بحنان اهتمامها، وكان الأهمّ من عروض الاهتمام هو عرض تحضير الحمّام لكي يستحمّ من مشاق السّفر والتّعب.

لقد ساعد من تخفيف الإحراج عنه وجود حمّامٍ منفصل في الضّيافة، واستطاعته البقاء فيها، وهكذا لا يقتحم خصوصيّة الأسرة.

لم يكن العناء الذي احتملاه يفتح الشّهية للطّعام بقدر فتح شهيتهم للنّوم.

حضّرت ليان وأمّها الطّعام وأرسلا راجي إليهما، لكنّه وجدهما غارقين في النّوم منغمسين في فراشٍ دافئٍ ناعم.

بعد ساعةٍ من النّوم، فتح أحمد عينه مفزوعًا من صراخ يزن...

«ماذا دهاك؟»

«سمعت صوت انفجارٍ قريب جدًا!»

«لكنّي لم أسمع شيئًا»

فعادا إلى النّوم، لقد كان انفجارًا كبيرًا أيقظه من حروبٍ اشتعلت في الحلم، حروب الحلم التي تشنّها مخيّلة النّوم؛ لتجبر الأحلام على أخذ مساحةٍ من تفريغ الواقع الذي يفوق تصوّر العقل.

كثيرًا ما يحلم الأشخاص بيوميّات شبه حقيقية تكون مكتظّة بالنّاس والأحداث والأماكن دون موضوعٍ أو فكرة، أو حتى مقدرة على التّفسير، أحداث كثيفة تترجم واقعًا مريرًا وعناءً طويلًا كان في اليقظة...

الأحلام في الحرب صديقة العدو، قاتلة إن لم تلمس جدران الحقائق...

راجي يبلغ من العمر سبع عشرة سنة، وهو يدرس الثّانوية العامّة، وكان يفترض أن ينتقل هذا العام من هذه المرحلة العمريّة المفصلية إلى حياة الجامعة، ولكنّها الحرب التي أفسدت مخطّطه كما أفسدت لكثير من الشباب مخطّطاتهم لمستقبلهم، يسعى راجي لأن يكون مهندسًا معماريًا؛ لهذا يبحث عن وسائل مختلفة للخروج من غزّة، واستكمال مسيرته التّعليمية.

ليان المدلّلة الصّغيرة، المعترضة المشاكسة، كان والدها يقول عنها: إن عارضة ليان خرجت ببيان، تخرّجت من جامعة القدس المفتوحة بمعدّل امتياز على الرّغم من أنّ هذا المعدّل منحها فرصة أن تكون معيدة في الجامعة، لكنّها رفضت ذلك لحبّها الشّديد للعمل الصّحفي، كان طموحها العمل في مجال الصّحافة وتغطية الأخبار وكشف الحقائق.

اجتمعوا مساءً على مائدة الطّعام بعد أن استيقظ أحمد ويزن وأصرّت الأم على أن يكون أحمد معهم؛ كي تذيب خجله وتكسر عادةً في غزة أن الغريب لا يجلس على مائدة الأسرة حتى يصبح قريبًا أو نسيبًا، ولكن هذه الحرب على الرغم من التفريق بالقتل والنزوح والتهجير، إلا أنها جمعت بين البعيد والقريب.

جرى الحديث عن والد يزن وكيف فقد الاتّصال به، وقد آثر أحمد السّؤال أمام الجميع للاطمئنان عليه وكانت النّظرات نحو الأم في انتظار جوابٍ جديد، وكأنّ هذا السّؤال لم يطرح منذ وقتٍ طويل، وجوابها غير الشّافي: «أشعر أنه بخير على الرّغم من انقطاع الاتّصال به». أعادت ليان السؤال بشكلٍ آخر: «لماذا لا تبلّغين الصّليب الأحمر، وستجدين منه جوابًا أوضح يا أمّي؟»

قال يزن:» فكرةً جيّدة يا ليان أعرف صديقًا يعمل في هذا المجال»

قاطعتهم الأم:» لا داعي لذلك، سننتظر قليلًا»

الصّمت الذي خيّم على الحوار، أثار غضب ليان لفتور اهتمام الأم، وجعلها تترك مائدة الطّعام تاركةً استنكارها.

اعتقد أحمد أنّ الأم تخفي أمرًا ما عن زوجها، ولكن يزن نفى ذلك لقوله: «أنت لا تعرفها، لو أن مكروهًا أصاب والدي ستنهار قبلنا، ولن تكون بهذه القوّة».

استغرب أحمد لماذا لا يدور الحديث حول عزّ الدّين الابن الأكبر؟ وقد تساءل من قبل لماذا لم تكن وجهة يزن إلى أخيه الأكبر، حيث يقطن في «دير البلح» وهي الأقرب من «خان

يونس»؟ مع أنّهم تحدّثوا عن فلسطين الأخت الكبرى والتي درست التعليم الأساسي، وتفوّقت في الجامعة، وعملت مدرّسة في مدارس الأونروا، وهي الآن متزوّجة تسكن في رفح، لا تكاد ترى أسرتها لأنها تعمل في إغاثة اللاجئين بدلًا من التعليم، وتسكن في شقة لبيت عائلة الزوج، والتي بالكاد تحصل فيها على غرفة بسبب نزوح عدد كبير من عائلته.
صوت المدافع لا يصمت، ويفسد الكثير من البحث في الإجابات، يعيد ترتيب اليوميّات، ويفسد التّحضير لكلّ الممارسات.

يزداد صوت طائرات الاستطلاع، يحاول أحمد النّوم بوضعه وسادة على رأسه، ويتقلّب يمينًا وشمالًا، ويجلس ويمتدّ ولكنّه لا يغفو، يسمع صوتًا كأسراب الدّبابير، يطنّ ويطنّ فوق رأسه الممتلئ بالصّور وأجراسٍ كثيرة تحيي مشاهد للموت، جلس وتكوّر حول نفسه، وكان يريد الصّراخ عاليًا لكنّه امتصّ ذلك خشية أن يستيقظ راجي الذي أصبح يلازمه بعد انشغال يزن بأسرته، وقد فوجئ بدخول الأم سجى التي اعتادت أن تطمئن على أبنائها بعد منتصف الليل، وحين رأته بهذه الوضعيّة، جلست بجواره، وربتت على كتفه تسأله: «ما بك يا ولدي؟».
بصرخةٍ مكتومةٍ وتنهيدةٍ مشتعلة: «آهٍ يا أمّاه. صوت الطّائرة، التّحليق، الانفجارات، صوت صياح أولادي، ضحكة زوجتي، أمّي وأبي، كل عائلتي، ليتني لحقت بهم أفضل بكثيرٍ من حياةٍ لا أسرة فيها ولا عائلة وذاكرة معطوبة لا لقاء فيها بعد الحنين».

«أنت ابني الآن، فلا تتحدّث هكذا، لم تكن تعرف يزن وقد ساقته الأقدار إليك، وجاء بك إلينا، أريدك أن تعلم جيّدًا أنّنا لن نكون مكان أسرتك وأهلك، لكنّنا لن نتركك وحدك أبدًا».

عانت هذه الأم الأمرّين في تربية أبنائها؛ كانت تعمل مديرة في قسم التّرجمة في وزارة الثّقافة، وكانت سيّدة مرموقة يحبّها الجميع، ولم يكن سهلًا عليها تربية أبنائها في ظلّ ظروفٍ صعبة، عاشت بها مع زوجها الذي حارب عاداته والأهل لكي يتزوّجها.

السّادسة صباحًا، بدأت رحلة طوابير المياه والخبز، الطّابور خلف الصّنبور أطول بكثير من طوابير الجيش الذي يستعدّ للحرب، اتّفق أحمد وراجي أن يتقاسما العمل، وأن يبقى راجي بجانب الماء، ويذهب أحمد لطابور الخبز. خمس ساعاتٍ حتى عاد راجي بالماء على أمل أن يتناول وجبة الإفطار، ولكنّه وجد الجميع ينتظر عودة أحمد الذي استغرق أكثر من ذلك، وعاد خائبًا دون خبزٍ على الرّغم من العناء الذي لقيه في الطّابور، وبين القيل والقال من نفاد الطّحين مرّة، ونفاد الوقود مرّةً أخرى، وفوضى الطّابور مراتٍ عدّة، انتهى القول بإغلاق المخبز، وعودة كثيرين دون رغيف خبز يخفّف وطأة الجوع. أنقذت الأمّ الموقف وذهبت لعجن القليل من الطّحين؛ لكي تخبز الخبز «الساج»، فاجأتها ليان بنفاد جرة الغاز، فشعر الجميع

بالإحباط، ولكنّ الأمّ تذكّرت وقود النّار، وقالت: سنكمل على النّار.

تتوالى الأزمات في هذه الحرب التي أكلت الأخضر واليابس، وحبست الأنفاس للغد المجهول، وأصبح كلّ من في المدينة يحتاج لأضعاف أضعاف عقله وروحه وماله، كي يصمد في هذه الحرب، وما زالت الأمّ سجى تمارس مثاليّتها، وتظهر الكثير من الصّبر والصّمود في وجه العناء.
كتبت ليان على صفحتها «الاحتلال يقتلع أراوحنا من الجذور، عائلاتٌ في السّجل تمسح من الجذور».

وحين قرأت ذلك أمّها عاتبتها وهي تذكّرها أنّ العدو يلاحق كلّ رأي، كلّ جسد، كلّ سلاح، كلّ عنصر من عناصر المقاومة، تذكرها بزميلها عصام وما حدث له، وتطلب منها ألّا تكون حادّة وواضحة في منشوراتها على الفيس بوك، وخاصة بعد ازدياد استهداف المحتل لعدد كبير من الصحافيين والإعلاميين، ولكنّها فوجئت بردّ ليان حين قالت: أهكذا تريدينا أن نضع رؤوسنا في الأرض كالنّعام، لماذا الخوف من كل شيء؟ وكأنّنا أذنبنا لأنّنا نحاول أن ندافع عن أنفسنا!

حاول يزن التّدخل، ولكنّه فوجئ بتعنّت الأم، وقد طلبت من ليان بقوّة إصرار أن تحذف المنشور، وألّا تعاود الكتابة في مواضيع تخصّ الحرب.

واجهتها ليان بالرّفض؛ لكونها صحفيّة وما نشرته على صفحتها الخاصّة يصبّ في محور عملها الصّحفي، وقد اشتدّ الحوار وما عاد بمقدور يزن فعل أيّ شيء سوى إبعاد ليان عن أمّها قليلًا، خاصّة بعد ما أذهلت والدتها بردّها عليها قائلة: «تريدين أن تخسريني أنا أيضًا كما خسرت عزّ الدّين؟!».

علت الأصوات ممّا أثار انتباه أحمد، فدخل محاولًا فضّ الإشكال بين ليان وأمّها ولكنّه فوجئ بهذا الرّد الصّاعق من ليان، فظلّ صامتًا لبرهةٍ من الزّمن، كأنّه ينتظر ردّة فعلٍ قوية من أمّها عليها.

بدا الذّهول والصّمت على ملامح الأمّ، وقد تجمع في صدرها الكثير من الغضب والصراخ والبكاء، حتى كادت تنفجر.. وأكثر ما كان يثير اهتمامها في هذه اللّحظات هو خوفها على أولادها فقط.

جلست ليان في المكتبة، وأحمد وراجي يحاولان تهدئتها، وبقي يزن مع أمّه برفقة زوجته يحاولان التّخفيف عن الأمّ حتى علا صوت الانفجارات والقنابل والمدافع القريبة في الخارج، ممّا دفع الجميع للانشغال بالسّؤال البديهي «أين هذا القصف؟».

وكأن الطائرات تتعب في السماء، تنحني من ثقل القنابل؛ كي تستريح فوق أجساد الآمنين، فتقتلع من أرواح الأرض ما تقتلع، وتترك أجساد العالقين بين الحياة والموت، الخائفين من فاجعة النجاة يحاولون نبش الركام بحثًا عن ضوء أمل.

بعد عصر اليوم ذاته خرج يزن إلى السّوق برفقة أحمد، بحثًا عن بعض الاحتياجات التي نفدت من السّوق منذ وقتٍ طويل.

ما زالت خان يونس كالفرس الأصيل يقف بعد السّباق ممتشقًا أنيقًا، على الرّغم من الدّمار، والمباني المتراكمة بعضها فوق بعض، فإن هذه المحافظة تبقى ثابتة متينة، يحتشد الناس حول قلعة «برقوق» وسط المدينة كالنّمل دون تنظيم، هذه القلعة التاريخية التي بنيت عام 1387م، وكانت نزلًا لاستقبال المسافرين، واليوم هي ومحيطها ملتقى للنازحين.

هذه القلعة من ضمن المعالم الأثرية الشّهيرة في غزّة، أمامها نصبٌ تذكاري للجندي المصري الذي كان يقاتل من أجل فلسطين، ومات في إحدى معارك التحرير.

لقد نزح إليها الكثير من سكان الشّمال، وامتلأت مساكنها ومدارسها ومؤسساتها وكلّ السّاحات والأراضي الزراعية.

السّير في الزّحام وبين معاناة النّاس يصيب بالإحباط، كلّ هؤلاء يبحثون عن أشياء مختلفة، بعضهم يمشي بين النّاس كأنّه يفتّش عن نفسه، وبعضهم الآخر يحاول التّأكد من أنّه ما زال على قيد الحياة. تجدهم يصادفون كثيرًا من الأشخاص ممّن يعرفونهم من قبل، وقد بدا على الأغلب أنّهم يلقون السّلام ببرودٍ جاف أو يرحّبون دون تعمّق في الاستيضاح؛ خوفًا من أخبار الفقد

والدّمـار، هكـذا فقـط يسـتغرب الجميـع مـن الجميـع، يمشـون فـي طاحونـة الوقـت، يسـابقونه لعلّـه يمـرّ بهـذه الحـرب بعيـدًا عـن طحـن ذكرياتهـم وأرواحهـم.

صدمتنـي طفلـة صغيـرة وأنـا أمشـي فـي طريـقٍ العـودة، قالـت لـي وهـي تحتضننـي ومـا زلـت لـم أر وجههـا: «حبيبـي ياعمّـو»...

هـذه الشّـقراء السّـمراء ذات الملامـح الجميلـة، طفلـةٌ بعمـر الفجـر وبـراءة الـورد، فرحـت كثيـرًا أنّهـا احتضنتنـي، شـعرت أنّنـي أنفـض غبـار التّعـب عنّـي، وعنـاء هـذه الحـرب بحضـن طفولتهـا.

اعتقـدت أنّهـا تعرفنـي أو أنّهـا بالـكاد ذلـك، ولكـن مـا إن خرجـت مـن حضنـي إذ بهـا تقـول: «أعطينـي شـيكل يـا عمّـو، يـا حلـو يـا عمّـو، يـا أحلـى عمّـو فـي الدّنيـا».

ابتسـمت ابتسـامة حـزنٍ وألـم، كيـف لهـذه البـراءة أن يلبسـوها ثـوب التّسـول، كيـف تصبـح الأحضـان النّاعمـة طريقـة لجمـع المـال؟ ولكنّنـي ضعفـت كثيـرًا، ونزلـت علـى رأسـها أقبّلـه، ونظـرت إلـى عينيهـا اللّتيـن تنطقـان مـن كثـرة الجمـال، حتـى بكيـت وأعطيتهـا كلّ مـا أملـك مـن فكّـة فـي جيبـي، وهربـت سـريعًا قبـل أن تنتهـز ضعفـي، وتزيـد مـن إذلال طفولتهـا أكثـر.

تشابهت المطالب واختلفت أوجه المعاناة، يكاد يكون الباعة أكثر من الرّاغبين في الشّراء، فمن المساعدات التي يحصلون عليها يحاولون توفير ما يلزمهم من أصنافٍ أخرى لم يحصلوا عليها، أو أنّهم يحرمون أسرهم من أصناف الرّفاهة من بسكويتٍ وتمر، للحصول على الدّقيق أو بعض أدوات المطبخ أو الفراش.

شعر أحمد بقلّة الحيلة وهو يتجول مع يزن لشراء مقتنيات البيت، وهو لا يشارك بدفع المال، وأنّه أصبح عالةً على نفسه وأسرة صديقه، فأشار على يزن أن يبحث له عن عملٍ ما.

التّجارة فقط تتصدّر الأعمال في هذا الوقت، عرض عليه البيع في بسطة صغيرة على أن يساعده برأس المال، ولاقت الفكرة استحسان أحمد وبدا على وجهه القبول.

*ينتصف الشتاء خجلًا من نزوح حار

اليوم التّالي شمسه ساطعة، سماؤه صافية، ليس هكذا ينتصف الشّتاء، ولكنّه يخجل من وجه الخيام، يرأف بحال من لزم القماش والأغطية والنّايلون؛ ليصنع منها ما يستره، جاء الشّتاء بوجه العناية، قد يغضب الفلاح لقلّة الأمطار ولكن أين هي الأرض التي ستبقى وينبت زرعها، وقد احتلّ العدوّ الأرض والسّماء والماء... ودمّر ما تبقى من أحلام؟!

تلقيت دعوة خاصة من صديقي المخرج السينمائي بمناسبة افتتاح مهرجان السينما العالمي، الذي يقام كمبادرة كل عام في غزة، وقد أراد له القدر أن يعرض مجموعة الأفلام الوثائقية بين أزقة الخراب والدمار وعلى أوجه الخيام.
على الرغم من الصلة العملية التي تربط الكاتب بالسينمائي؛ فإن عالم الأضواء ليست من اهتمامات الكاتب، لكني ذهبت إرضاءً ومجاملةً لصديقي، وصلت هناك وجلست بين العدسات والكاميرات، أغلبها جوالات حديثة تحيط بالمكان، حتى الترحاب كان بعدسات التصوير، تشعر وأنت جالس كأنّك في استديو تستعد لتسجيل حلقة من حلقات الحياة.

اعتلى صوت أحاديث التعارف، وكان صديقي بجانبي يحاول زجّ اسمي لأصدقائه المخرجين والإعلاميين. لم يكن وصفي روائيًّا مثيرًا لاهتمامهم، ولا حديثه عن بطلة روايتي «بين الكاف والنون» التي سرد دورها المؤثر، وكيف لها وهي ابنة القدس أنّها تحب شابًّا من غزة حكم عليه بالحصار وجدار الفصل.

فجأة اتجهت الأنظار والعدسات نحو طفل يحمل قالب كعك، وقد تعثّر في طريقه ووقف متصلبًا أمام سقوط القالب على وجهه ليختلط بالرمال، وقف يحبس الدمع، ويسمع من بعيد مواساة كلامية انشغلت أكثر في تصوير المشهد. لقد كان أشهر طفل وأشهر قالب كعك مغموس بالأرض، لأنه سقط وسط كم هائل من الإعلاميين والمخرجين، كيف تفوّت هذه الفرصة لعرضها في يوتيوب أو في مشهد إعلامي لطفل ينتظر ردة فعل أمه التي جمعت أغراض الكعك بصعوبة وأسرته التي تنتظر استعادة بعض ذكريات الفرح والحلوى؟

لقد اختنقت من بكائه ومشهد رفعه للصينية وهي فارغة ملطخة بالطين، واختنقت أكثر من عدسات الناس التي لا تهتم ببراءة هذا الطفل، الذي لن يفرح لمشهد حزن أسرته حتى لو عرض على الشاشات آلاف المرات.

تناولت أسرة عبد الرّحمن طعام الغداء تحت أشعّة الدّفء، أسفل ظلّ شجرة العنب.

أحمد جالسٌ بينهم يشعر بأنّ هذه الأسرة تحاول دائمًا أن تعوّضه عن فقدانه لعائلته، وكان يحدّثهم كيف تعرّف على زوجته في جامعة تخرّج منها في الجزائر، وأحبّها هناك وطلب يدها وهو ما زال طالبًا لا يملك حتى مهرها. في ذلك الوقت قال له والدها: يكفي أنّك ابن فلسطين الحبيبة، ويكفيني وابنتي فخرًا بهذا النّسب العظيم، وقد عقد عليها وتزوّجها في السّنة الثّالثة من الجامعة، وسكن معهم في البيت نفسه حتى تخرّج هو من قسم اللّغة الإنجليزية، وانتظر عامًا حتى تخرّجت هي من قسم العلوم، وعادا معًا إلى غزّة للعيش فيها.

علمت الأمّ بفكرة عمل أحمد على بسطةٍ صغيرة لبيع بعض المعلّبات، وذلك بعد اقتراح يزن عليه ذلك -بناءً على طلبه- فغضبت بشدة وقالت: «أتريد لمدرّس اللّغة الإنجليزية أن يجلس على الطّريق وينادي كالباعة على بضاعةٍ لن تكون في سوق التعلم؟!»

«ولكن يا أمّي لست أنا ولا يزن من يريد ذلك، الحاجة والحرب هي التي تريد»

«أنت قلت يا أمّي، وأمّك لا تقبل بذلك، اترك لي الأمر، سأقترح عليك شيئًا يجب أن تقبل به، سأسلّفك مبلغًا من المال، حتى تحل مشكلة رواتبكم، وتستطيعَ الحكومة إيجاد وسيلةٍ لصرفها».

حاول أن يرفض أحمد ذلك، ولكنّه بحاجة فعلًا إلى المال، فقد كان يفكّر بشراء هاتفٍ محمول للتّواصل في ظل هذه الحياة المقطعة الأوصال؛ لعلّه يستطيع معرفة ما حدث في جباليا، خاصّة وأنّه يسمع الكثير ممّا يتداوله النّاس عن مجازر ودمار وخراب يعمّ هذا المخيم، قد يستطيع أيضًا معرفة، هل أخرجت عائلته من تحت الأنقاض وأين دفنوا.

أيّامٌ وأيّام، لا شيء يتغيّر والمعاناة تزداد في كلّ شيء، تتضاعف الأزمات كلّ يوم. كيف يجتاز الرّجال طوابير الانتظار؟ وكيف تتسابق النّساء مع الوقت للانتهاء من تحضير الطّعام وغسل الملابس وتنظيف بيوتٍ أو خيامٍ مكشوفة؟ الطّرقات مكتظّة بالسّكان، دع عنك أصوات القصف المختلف، وهذا الطّائر الأشبه بالغراب ينعق وينعق طويلًا ولا يهدأ، حتى يقتلع الأرواح والأجساد.

تتوالى الأيّام ولا يعرف في أيّ يومٍ من أيّام الأسبوع هم، تفاجأ بأنّه يوم الجمعة، هذا اليوم الذي كان يتميّز بقدسيّته في الصّلاة وخطبة الجمعة، يعقبها جمعاتٌ من الأهل حول سفراتٍ ممّا لذّ وطاب من لحومٍ ودجاجٍ وما شابه ذلك، والآن فقدت كلّ هذه المظاهر، وأصبح يوم الجمعة أقلّ من عاديّ، لا خطبة فيه بسبب القصف المتوالي للمساجد، ولا جمعات أهلٍ حول سفرات الطّعام اللّذيذ، بسبب انعدام كافّة أصناف الطّعام، ويتساءلون هل انتهى الأسبوع بهذه السّرعة؟! مرّت أشهر عديدة ولم يشعر النّاس بها، انشغلوا بالبحث عن الرّاحة والسّكينة والطّعام والماء، انشغلوا بكلّ شي إلّا الزمن الذي يدور بهم، ويشغلهم عن ضياع العمر دون أن يحققوا أيّ مراد.

«أمّي إخوتي، إنّها هدنة أعلنوها أخيرًا»

راجي: «لكنّها لعشرة أيامٍ فقط يا ليان»

ليان: «ستستمر وستنتهي الحرب»

الأم: «لا تتفاءلي كثيرا يا بنيّتي، هذه الحرب تختلف عن كلّ الحروب السّابقة».

أين يزن؟ أخبروه بأن يحضر أحمد أيضًا لديّ خبر غير سار، أودّ أن أطلعكم عليه».

اجتمع الأبناء حول الأمّ أخيرًا، وساد الصّمت بينهم منتظرين الخبر، فكان الخبر يخصّ زوجها، وقالت إنّها علمت باعتقاله بعد اتّصاله على والدها، وقد ساقه المحتل بعد كشف مكانه في يافا إلى معتقل يجمعون فيه كلّ العمال الذين خرجوا من غزّة، وقد احتجزوه لفترةٍ طويلة، ولم يبلّغوا الصّليب الأحمر، لذلك السّبب كان الصّليب ينفي معرفته بأيّ شيء يخصّه.

قالت ليان بتجهّم: «لقد كان إحساس عزّ الدّين غير مطمئن يا أمّي، لذلك كان دائمًا ما يطلب منك أن تسألي عنه والدك؛ ليتسنّى لنا البحث عنه، والاستفسار عن أحواله».

قالت الأمّ بغضب: «ويقول بأنّي يهوديّة وليس صعبًا أن أبحث عنه؟!»

كانت مفاجأة كبيرة لأحمد الذي بات يردّد في ذهنه: يهوديّة، يهوديّة...، ويتساءل: ولكن كيف ذلك؟! لم يذكر ذلك يزن من قبل!

أراحت سيغال جسدها على الكنبة وهي تسرد: «لقد تركت كلّ شيء خلفي وتزوّجت والدكم واعتنقت الإسلام، خسرت أهلي وبلدتي وعشت معه متفرّغةً لكم، على الرّغم من عدم تقبّلي من أهل زوجي، وتعرّضت للطّرد والإهانة والازدراء، وهدّدوني بعزّ الدّين مرارًا أنّهم سيأخذونه منّي إن لم أترك والدكم، واحتملت

أكثر بكثير من ذلك. والآن وببساطةٍ يعايرني أكبر أبنائي ويعتقد بأنّني ما زلت يهوديّة، أخبروه بأنّ والده معتقلٌ هناك، وأنّه لو علم بما نعتني به ابني، لما كان سيحبّ الإفراج عنه واللقاء به.

كان عبد الرّحمن يعمل في إسرائيل منذ أن كان شابًّا يافعًا، وقد تعرّف على سيغال هناك، وتزوّجها وجاء بها إلى أهله بعد أن أحدثا ضجّةً سياسيّةً كبيرة، وخلافاتٍ اجتماعيّةٍ أكبر، ولكنّهما كافحا ذلك كلّه لتخطّي كلّ هذه الزّوبعة التي أفرزت بعض الأحقاد والمؤامرات، لكنّها أيضًا أفرزت حبًّا متماسكًا بالتّحدي والإصرار.

عزّ الدّين من شدّة خوفه على والده استنجد بها، وطلب منها أن تتواصل مع والدها، أو أيّ من معارفها يستطيع أن يساعدها في البحث عنه، ولكنها كانت تعلم وقتها أنّ الثّمن مقابل ذلك سيكون كبيرًا جدًّا، وأنّ ما كان قبل السّابع من أكتوبر لن يكون هو نفسه بالعلاقات والمعرفة والأقارب بعد هذا التّاريخ.

انفضّ الجميع إلى مضاجعهم، لم يكن السّهر حليف أحدٍ منهم، الإرهاق النّهاري أثقل على الجميع، وسلبهم قدرتهم حتى على السّهر.

السّاعة الواحدة بعد منتصف الليل، سقط صاروخ بوزن السّماء دكّ الأرض دكًّا وحطّم زجاج النّوافذ، فاخترق الغبار أنفاس الجميع، فاستيقظوا باستغرابٍ بين الرّكام والغبار الذي احتلّ مهاجعهم وغرفهم، لم يشعروا بشيءٍ حينها سوى يقظةٍ بين كومةٍ من الحجارة والرّمال والدّخان، أخذوا يصرخون وينادي بعضهم بعضًا، يريدون أن يستيقظوا من حلمٍ اعتقدوا أنّهم يعيشون تفاصيله.

لحظاتٌ وتكشّف القصف مع صرخات الجيران من حولهم، كانت علياء زوجة يزن تبكي وتصرخ ابني مصاب ذهبت الأمّ مسرعةً إليها تتفقد إصابة الطّفل وتسألها عن وضعها وجنينها، اطمأنّوا أنّهم بخير، وأنّ إصابة ابنها في الرّأس كانت طفيفة، فحمله والده متوجّهًا نحو سيارة الإسعاف في الخارج، إذ به يفاجأ من مشهد الضّيافة، وكيف طواها الانفجار، فنادى على راجي وأمّه، وأعطى ابنته سارة لأمّه لتذهب بها إلى الإسعاف، ودخلا معًا إلى ما تبقّى من قسم الضّيافة للبحث عن أحمد.

وجدوه ممدّدًا أسفل الحائط الذي يستند إليه، يغطّيه الرّمل والرّماد والحجارة، فركضت ليان لتحضر بعض الماء تغسل عن وجهه ذلك السّواد، وقد كان عالقًا بين أعمدة الغرفة. أخذوا يرفعون عنه الحجارة والرّكام، وغسلت ليان وجهه بالماء وهو يقول

مندهشًا: أيعقل أنّي ما زلت حيًا ولم أذهب إلى أسرتي وعائلتي؟

توجّه طاقم الإنقاذ نحوهم وساعدوا في إخراجه، وكانت الوضعيّة التي سقط فيها من حسن حظه محميّة بالأعمدة التي لم تقع مباشرة على جسده، بل كانت تحمل عنه الحجارة وسقف الغرفة، فأخرجوه بعناية وتابع حالته المسعفون، وتأكّدوا أنّه بخير، فتلك الرّضوض والكدمات وبعض الجراحات لا تستدعي نقله إلى المشفى المكتظ بالمصابين.

ليس صاروخًا بوزن الأطنان، بل صاروخين متتاليين سقطا على عمارةٍ بجوار البيت والبيوت الملاصقة له، تضرّر عددٌ كبيرٌ من البيوت، وأصيب الكثير من النّاس ما بين جريح وشهيد. انشغل السّكان في الإنقاذ، واهتموا بالحالات الأكثر احتياجًا لكثرة عدد المصابين. كان السّور الذي يحيط ببيت سيغال وغرفة الضّيافة والمكتبة قد ساهموا بامتصاص قوّة الانفجار الموجّه نحو البيت، فاكتفى الانفجار بتدمير جدران الضّيافة والمكتبة، وتأثّرت المنافذ من الدّاخل وأبواب المداخل والغرف.

خمسةٌ وثلاثون شهيدًا جلّهم من الأطفال، هذا ما كتبته ليان على صفحتها وأضافت: نحن بخير برعاية الله.

ورد اتصالٌ إلى ليان من أخيها عزّ الدّين يطمئنّ عليهم بعد القصف، وحاولت تمرير اتصاله إلى أمّهم، ولكنّها رفضت وقالت: يكفي أن تخبريه أنّنا بخير.

وقتها حاول أحمد أن يردّ معروفها بقلقها عليه، طالبًا منها أن تسمح له بالحديث معها، ولكنّها رفضت ذلك أيضًا، وأعادته لمربّع تمنّيه للموت، وأنّه لا يزال يفتقد أسرته وقد أخبرته أن أصبح لديه أسرة جديدة، فلا داعي لأن يعود لهذا التّفكير، أو لتأنيب نفسه على اختيار القدر لأسرته وأهله.

انفضّوا جميعًا لتنظيف البيت وإزالة الرّكام والغبار ورفع الزّجاج وترتيب المكان؛ لأنّ الضّيافة دمّرت، والمكتبة أصبحت بعضها فوق بعض، اختلطت الكتب بالحجارة، اضطرّت الأمّ إلى أن تطلب من أحمد الدّخول إلى البيت، والمكوث في غرفة عزّ الدّين.

الجرّافة تكشّر عن أنياب مشطها، تريد فرد خصل الحديد، وفتح ممراتٍ للحياة لأولئك الذين خبّأهم الحصى والسواد.

ست ساعاتٍ وما زال الغبار عالقًا في الأجواء، بالكاد يتنفّس الجميع. استخدمت سيغال عبوةً تستخدم لتنظيف النّوافذ وملأتها بالمياه، وكانت ترشّ على الهواء حتى يثقل الغبار فيسقط على

الأرض، ملطّفةً الجوَّ قليلًا، وانخفضت رائحة البارود وعبق الاختناق.

الشّروق لم يكن للطّوابير المعتادة كل صباح، لقد غرق الجميع في النّوم بعد تعب الأجساد، ونجاة الأرواح التي قدّر لها البقاء على قيد الحياة.

لم ينم أحمد حتى استفسر فضولًا عن سبب قسوة الأمّ تجاه ابنها عزّ الدّين، رغم أنّها طيّبة القلب حنونة، فأوضح له يزن أنّه بحجم هذا الغضب والمقاطعة والقسوة التي يراها، فهي تحبّه كثيرًا وأكثر عن باقي إخوته، وذلك ليس لأنّه البكر فقط، وإنما لأنه أنجب أيضًا في ظروفٍ صعبةٍ جدًّا، وقد عاصر كلّ المشاكل والخلافات والتّحديات التي واجهت علاقة والديه بعضهما ببعض.

«وهل أمّك يهوديّة فعلًا؟»

يزن: «نعم، هي كانت يهوديّة، ثمّ أعلنت إسلامها بعد إنجابها عزّ الدين، وجدّي وجدّتي وعائلة أمّي يهود، ولكنّنا لا نتواصل معهم منذ فترة طويلة».

«كيف ذلك؟!»

«إنّها قصةٌ طويلة يطول شرحها، والآن دعنا نخلد للنّوم نريح أجسادنا من تعب النّجاة من الموت».

مضت ساعةٌ تقريبا، وطرقت زوجة يزن الباب عليهما، لم يكن ابنه البالغ أربع سنواتٍ بخير، بعد أن اطمئنّ على حاله من أثر شظيّةٍ مرّت على رأسه، ضمّدها المسعف وطمأنه أنّه بخير، لقد كان صدره ممتلئًا بالغبار، ولم يستطع النّوم من شدّة السّعال.

اضطر يزن لأخذه إلى المشفى، وصاحب أحمد معه ليقف بجانبه. لم يكن الوصول سهلًا إلى هناك، فالعربات لم تصح بعد، والحركة في الصّباح بطيئة، إذ تتجمّع عند المخابز وصنابير المياه، والأقدام بدأت رحلتها في المشي، فقد نفد الوقود بعد توقّف ضخّه للقطاع، ودخل في لعبة العصا والجزرة، واضطر أصحاب السّيارات لاستخدام الزّيت المستخدم للطّهي بدلًا من السّولار أو البنزين، وهذا يؤدّي إلى تلف محرّك السّيارة على المدى البعيد.
لكن الحاجة إلى استخدام السّيارات وكونها فرصةً للحصول على المال للعديد من أسر سائقي السّيارات في ظل هذه الظّروف الصّعبة، جعلهم لا يأبهون بشيء، لا للمدى البعيد ولا القريب، جلّ اهتمامهم هو قضاء حاجاتهم بما هو متاحٌ حولهم، والخلاص من هذه الحرب اللّعينة التي قضت على كلّ شيء.

ساعةٌ كاملةٌ في الانتظار، بدأ يزن يفقد أعصابه فيها، لم تتسجّل حالة ابنه بعد، ولم يحضر طبيبٌ للاطّلاع عليه، فيما أحمد يحاول أن يهدّئ من روعه، ويشير في حديثه لكثرة النّاس، واحتشاد المرضى والمصابين.

يشير إلى تلك الأربعينية التي تشد مئزر زوجها بيدها اليمنى، وتحمل طفلها المصاب خلف ظهر اهتمامها، تدلل أنامل سقوطه أرضًا، وتحاول أن تمسح على رأسه بكف الرجاء داعية الله بأن لا تفجع بموته أخيرًا.

استشعر يزن أهميّة ما يقوله أحمد، وأخذ يحمد الله على حالة ابنه مقارنةً بما رأى من فظاعة الحالات المصابة، حتّى أنّه شعر بأنّ ابنه ليس بحاجةٍ لمشفى، وهو ينظر لسيّدةٍ ملقاة على الأرض، يحاولون ضخّ الأكسجين إلى صدرها ومعالجتها، دون أن يكون لها مكانٌ خاص بها، أو حتّى سرير في أيّ ركن كان بسبب حشود المصابين هناك.

المرضى في الممرّات ممتدّون بجروحهم وأوجاعهم، وفي كلّ لحظةٍ تمرّ يسجّل عددٌ من المصابين دخولًا للمشفى، ولكن دون وجود أسرّةٍ تستوعب أجسادهم المثقلة. المرافقون، الزّائرون، الأطبّاء، المرضى الإداريّون، العاملون، البائعون.. المشفى يغصّ بالنّاس، ولا نعرف كيف يمارس الطّبيب مهامه في ظلّ هذه الفوضى، نحن هنا في دولة الحرب والفوضى في أمنها وبقائها واستمرارها، وفي ظلّ هذا الحشد الكبير، وهذه الفوضى تنتشر الفيروسات، وتنتقل من شخصٍ لآخر؛ لانعدام النّظافة والتّعقيم المستمر، فيصبح المشفى ناقلًا للمرض، وليس معالجًا له.

نصح أحمد بنقله إلى الصّيدلية، وكان من حسن الحظّ أنّهم وجدوا جهاز تبخيرة هناك.

بينما كان الطّفل يستبدل أنفاسه وينقّي الشّعب الهوائيّة، كان يتبادل أحمد الحديث مع يزن عن أمّه، وكيف تزوّجت والده؟ وكيف عاشوا المعاناة حينها؟ وعلم منه أنّ خلافاتٍ عميقة بقيت مع الأقارب من كلا الطّرفين، وأنّ حاجزًا عظيمًا نما مع سنوات البعد دون أن يحاول أحدٌ منهم كسره مع الآخر.

دخلت امرأةٌ يبدو عليها التّعب والإرهاق، تغطّى وجهها بغطاءٍ أسود اللّون، لا يظهر منها سوى عينيها، تحدّثت مع الصّيدلانية بصوتٍ منخفض، وفجأة سقطت على الأرض.

بينما ظلّ يزن مع ابنه، ذهب أحمد برفقة رجل آخر؛ ليسعفا هذه المرأة، وفي أثناء مرورهم في الطّريق إلى المشفى القريب، لفت انتباه أحمد عندما حملها من قدميها أنّها ليست امرأة كما كان يعتقد، بل كانت قدماها قدميْ رجلٍ، وقد أشار لمن معه بتغطية قدميه سريعًا. وصلوا أخيرًا إلى المشفى ونادوا الطّبيب المناوب، وهمس الرّجل في أذنه وأخذ أحمد بيده وتحرّكا خارج المشفى سريعًا منبّهًا عليه بألّا يتحدّث عن هذا الأمر مع أيّ شخصٍ كان.

كان القصف الإسرائيلي يستهدف كافّة النّاس بمختلف مراكزهم الاجتماعيّة والسّياسيّة ومهنهم أيضًا، فقد قصفوا الأطبّاء والصّحفيّين، والمهندسين، والمثقّفين، والفنّانين، والكتّاب، والأكاديميين، ومن ينشط على مواقع التّواصل الاجتماعي بالكتابة والتصوير، لتأثيرهم في شرائح المجتمع. كل من له علاقة من

قريبٍ أو بعيد بأيّ صاحب فكرةٍ سياسيّة أو قول وطني يقصف. كانوا يقصفون بسبب منشورٍ على الفيس بوك، أو على صورةٍ تلتقط ضدّهم، أو على تغريدةٍ تمجّد ما تقوم به المقاومة.

أحمد والرّجل المسعف لا يستطيعان ترك هذا الجريح، وفي الوقت ذاته لا يمكنهما البقاء معه طويلًا، خوفًا من أن يصيبه اغتيالٌ من قبل الطّائرات التي تصبّ نارها دون ميزانٍ أو قانون. اكتفى أحمد بأن يخبر يزن أنّها أصبحت بخير بعدما فقدت الوعي، فلو علم المحتل بما صنع مع الرّجل المتخفّي، وأراد معاقبته لن يرسله للسّجن أو يقتله وحده وكفى، بل سيرسل عليه قنابل لا ترحم ولا تهتم لمن معه، حتى لو كانوا مليارًا من النّاس، فخوفه هنا على أسرة يزن أو على أيّ شخصٍ يكون بجواره أو قريبًا منه كان أكبر من خوفه على نفسه. قد يتساءل بعضهم ألهذه الدّرجة كان العدوّ في حالةٍ من التّخبّط؟ لا، بل كان لهذه الدّرجة وأكثر، يريد أن يقتل، يريد ضحايا، يريد دماء، فقد قصفوا المستشفى الأهلي (المعمداني) من أجل هدفٍ واحدٍ، غير آبهين بالأعداد المهولة فيه من المرضى والأطبّاء والنّازحين، دمّروا شارع القيساريّة، هذا الشّارع الأثري القديم، الذي يجمع أماكن أثريّة أخرى عديدة كالمسجد العمري الكبير، الذي دمّر بالكامل، والكنيسة المسيحيّة القديمة، وضربوا أسواق البلدات جميعها، وكانت دائمًا الأكثر ازدحامًا بالنّاس.

تلقّت سيغال اتّصالًا من والدها، وكان الارتباك والغضب باديًا على صوتها، فهي ترغب في معرفة أيّ خبر عن زوجها، حتّى أنّها قالت له: يا أبي، إنّك رجلٌ صاحب نفوذٍ في الدّولة، أريد أن أعرف أين زوجي، أعتقد أنّه من حقّي عليكم ذلك، هو لم يفعل شيئًا، لماذا يحتجزونه عندهم؟!

- «سيغال، أنت تعرفين القانون الإسرائيلي، هذه حرب، وما حدث في السّابع من أكتوبر لم يكن لعبة، إنّها كارثة، باعتقادي لا نفوذ ولا سلطة باستطاعتهم فعل شيء لزوجك أو غيره».

- «لكن يا أبي، زوجي يعمل في الأراضي المحتلة منذ أعوام، لم يفعل أيّ شيء يخالف القانون، وليس لديه علمٌ بما حدث، لماذا يعتقلونه؟ لماذا لا يفرجون عنه؟».

- «هو الآن في سجن السّبع، وقد تحدّثت مع أحد الضّباط بشأنه، وطمأنني على صحّته، صدّقيني لا أستطيع فعل أكثر من ذلك، أنت تعلمين كيف يكون الوضع حين تنشب حربٌ كهذه، وحين يتشكّل بدلًا من الحكومة مجلس حرب، ولكنّي متأكدٌ أنّهم سيفرجون عنه قريبًا».

حين علم عبد الرّحمن بالأحداث التي جرت على أرض المستوطنات المتاخمة للحدود مع غزّة، توجّه نحو تل أبيب، وبقي هناك عند صديقٍ يحفظ سرّه وماله، ولكن اكتشفت الشّرطة أمره حين بلّغ أحد الجيران عن وجوده، بعد أن قضى شهرين

معه، وقد تعرّض صديقه الإسرائيلي إلى المحاكمة، ودفع مبلغ تعويض مقابل إخفاء ذلك عن الحكومة.

كان الجيش الإسرائيلي يجمع كلّ العمّال في ساحةٍ واسعة، معصوبي العيون ومكبّلي الأقدام والأيدي، يساقون نحو السّجن بالضرب والتنكيل، يصبّون عليهم غضبهم صبًّا، غضب دون أيّ مبررٍ أو سبب، سوى أنّهم فلسطينيّون من غزّة.
كان الجوّ لا يزال حارًّا أواخر نوفمبر، شعر عبد الرّحمن بالعطش، فطلب من الجندي الذي لا يراه وهو معصوب العينين، وشعر باقترابه منه، إذ بها مجنّدةٌ تهمس في أذنه وتقول له: «أنت لست في نزهة يا خبيبي».

لقد تعرّض للضّرب الشّديد الذي نتجت عنه إصابةً بليغةً في قدمه المصابة من حادثٍ منذ زمنٍ بعيد، سبّبت له ضعفًا في الحركة. قد ضاق به الحال، خمسة أيام من الضّرب والشّبح والسّب والتّعذيب والنّقل من مكانٍ إلى آخر، لم يكترث أحدٌ لتدهور صحّته، ولم يشك وهو يعلم أنّ الكبير والصّغير، والمريض والضعيف، والمصاب والجريح كلّهم يجتمعون تحت عنجهيّة الاعتقال. كان يسمع صرخات غيره من المعتقلين، فيعلم أنّ العدد كبير، وأنّه ليس وحده من يردّد: لم أفعل شيئًا، لم أفعل شيئًا.

وفي اليوم الذي سمحوا له برفع العصبة عن عينيه، وجد نفسه في السّجن الذي أنشئ من السّياج والممرّات و«الكرافانات» والخيم، وقد عرف بعضهم ممّن يعرفون الأراضي المحتلة جيّدًا، أنّها بئر السّبع.

اصطفّ السّجناء في طوابير، وفرزهم السجّانون في ممرّات مؤدّية إلى «كرافاناتٍ» واسعة وكبيرة، يسع كلٌّ منها مئة وخمسين شخصًا، الكشّافات المسلّطة على المكان أشبه بشمسٍ ساطعة، مسلّطة على أجسادهم هذه الإنارة القويّة جدًّا، تعمّ أرجاء المكان؛ لتنير كلّ ركنٍ فيه كالنّهار، ممّا يصعب على السّجناء النّوم. والغطاء الذي منح لكلّ شخصٍ منهم لا يكفي لتدفئتهم، كانت ليلة شديدة البرودة، ممّا يؤكّد أنّهم في بئر السّبع، فإنّ هذه المنطقة صحراويّة حارّة نهارًا، وباردة جدًّا ليلًا، لكن رغم كلّ ذلك، فإنّهم استغرقوا في نومٍ عميق، بل كادوا ما يشعرون ببردٍ أو غيره، من شدّة ما لاقوا من تعبٍ وإرهاق جرّاء السّفر والتّنقل وقلّة النّوم لأيامٍ عديدة، حتّى أوجاعهم جرّاء الضّرب المبرح لم يشعروا بها.

كان لا بدّ من إيجاد حل في اليوم التالي لهذا البرد القارس، وهذه الكشّافات الكبيرة المزعجة. اقترح أحدهم أن يتلاصق الجميع، ويكون الغطاء مشتركًا بين الجميع. أدّت هذه الفكرة إلى زيادةٍ في عدد الأغطية، حتّى أنّهم استخدموها كخيمةٍ أسفل الكشّافات؛ لتخفيف الضّوء والقدرة على النّوم.

لم تحصل سيغال من والدها على أيّ وعدٍ بعودة زوجها..
أمّ سيغال التي لم تهتم حتى بالاتّصال بها والاطمئنان على حالها في مثل هذه الحرب، كانت على عكس والدها الذي كان حنونًا يحبّها على الرّغم من معارضته لما فعلته سابقًا.
إنّها السّنوات القديمة، وإنّها الحرب الحديثة من دفعته للاستسلام أخيرًا، وكسر حاجز القطيعة، فلم يكن سهلًا عليه أبدًا أن تخالف ابنته الوحيدة عقيدتها اليهوديّة، وأن تتخلّى عن هويّتها الإسرائيليّة؛ لتعيش مع عاملٍ فلسطيني أحبّها، وعاشت بين أهله لسنواتٍ عدّة. أنجبت فيها ودرست وعملت، ولم تقصد في بقائها معه تحدّيًا لهم، بل هو تحدّي إخلاصها لمن أحبّت واختارت أن تكمل حياتها معه.
كيف يمكن أن تعلن الحرب على اختياراتنا وعلى مشاعرنا، وما ألفته قلوبنا وعقلته عقولنا؟!

لم يكن متوقّعًا أن تخلى المدينة بالمدافع، فقد صوّبت السّماء القنابل عليها؛ ليضطرّ السّكان إلى النّزوح تحت ضربات النّار، حملوا حاجيّاتهم الأساسيّة، وخرجوا من بيوتهم حفاةً يحملون أولادهم وأرواحهم. كانت القنابل قريبةً جدًّا، الحجارة تتطاير في كلّ مكان ممّا دفع أسرة سجى للرّكض خارج البيت ببعض الأوراق المهمّة، والملابس القليلة نحو السّاحل بحثًا عن مكان آمن. التفّوا جميعًا حول الأمّ، وكانت البيوت من حولهم تتناثر من القذائف، ومع كلّ قنبلةٍ يقفون يفتّشون عن أرواحهم، ويحمون

أجسادهم من الشّظايا، ويتحرّكون وأعينهم تلتقط مشاهد الدّمار، وتندهش لمن يسقط شهيدًا أو مصابًا في الطّريق، عاجزين عن فعل أيّ شيء لهم من هول ما هم فيه. وكانت الأم تحثّهم على الإسراع وعدم التّوقّف، حتى يتمكّنوا من الخروج بسلامٍ من مربّع القصف، وأنّ التّفكير في إسعاف أحدهم قد يؤدّي إلى هلاك الجميع.

وصلوا بعيدًا عن الحزام النّاري، وجلسوا يلتقطون أنفاسهم، ويعطون فرصةً لعلياء التي اصفرّ وجهها، وهي الحامل في شهرها الثّالث، وقد همست في أذن الأمّ أنّها تشعر بنزيفٍ أسفل منها، إثر الخوف والرّكض.

وقتها ورد اتّصالٌ لسجى من والدها، وأجابت بدمعةٍ فاضت من كتمان خوفها: أكنت تعلم يا أبي؟ لم لم تخبرني؟! كانت تبكي كالصّغير لسماع صوت والدها، لكنّ والدها نفى معرفته بما حدث لهم، وقال إنّه سمع في الأخبار عن إعلان الجيش الإسرائيلي بدء عملية التّوغل إلى مدينة خان يونس، واحتلالها كاملة.

لم تقدر سجى على مواصلة الحديث مع والدها، فأغلقت الهاتف وأجهشت بالبكاء، لعلّها تغسل عينيها ووجهها من الغبار الذي انتشر في كلّ مكان إثر الدّمار والدّخان.

احتضنتها ليان وعلياء، متجاوزتين خوفهنّ بشعور الشّفقة على ما تحتمل هذه الأمّ الصّبورة، حينها أيقنت ليان سبب غضبها

من ابنها عزّ الدّين الذي أراد للحظةٍ أن يخبرها: «لا تنسي أنّك يهوديّة"، في حين أنّها كانت دائمًا تحاول أن توصل إليهم رسالةً مفادها أنّي بعد عبد الرحمن أصبحت فلسطينيّة، ولا أريد العودة إلى ما كنت عليه.

حمل أحمد عبد الرّحمن الصّغير على كتفه، واستنهضت الجميع همّةُ القتال من أجل البقاء، تحرّكوا كلّهم نحو غرب خان يونس، حيث وصلوا إلى المنطقة الصّناعية، وهي المنطقة التي تتبع لوكالة الغوث «الأونروا»، والتي قد فتحت أبوابها ونصبت خيامها هناك، وقد تواصلت الأمّ سجى مع إحدى صديقاتها التي تعمل في المبنى، لتوفّر لها غرفةً جيدة، تمكث فيها وتضع حاجيّاتها حتى تضع هذه الحرب أوزارها.

غرفةٌ من الباطون أفضل بكثيرٍ من خيمةٍ سقفها الشّمس والمطر، وأرضها السّيول والحشرات. لقد امتلأ المكان سريعًا بالنّازحين، والخيامِ المصنوعة من القماش والأدوات البسيطة التي تصلح فقط للسّتر، وليس للإقامة.

ورد اتّصالٌ لراجي من أخته فلسطين، والتي كانت تحاول منذ الصّباح الاتّصال بهم، ولكنّ شبكة الاتّصال لم تسعفها، وطلبت منه أن يوصلها بأمّه فورًا قبل أن ينقطع الاتّصال، محاولةً إقناعها بالقدوم إلى رفح في الغد.

فلسطين ستستقبل أهلها في غرفتها الخاصّة، إذ إنّها في بيتها لا تقيم إلّا في غرفةٍ واحدة، وذلك لأنّها تأوي نازحين آخرين، يستقلّون في منزلها بأكمله دون غرفتها الخاصّة لعددهم الكبير، ولكنّ الأمّ رفضت ذلك وطمأنتها، وطلبت منها ألّا تقلق عليهم فهم في مأمنٍ الآن.

لقد حاول أحمد أن يتركهم بعد أن وفّر لهم الماء والطّعام، وحين أخبر الأمّ أنّه سيتدبّر أمره اللّيلة ثم يعود صباحًا، صرخت في وجهه تذكّره بأنّه أحد أفراد هذه الأسرة، وأنّهم أحوج الآن لبقائه معهم، وقالت له بغيظٍ ووجع قلبٍ: «لقد خسرت أسرتك وأهلك في الحرب، وأنا خسرت أهلي وقومي دون هذه الحرب، وأنا مستعدّة الآن لأن أخسر أيّ شيء إلّا أسرتي».
أثنى يزن على كلامها، واقترح أن يستغلّوا المساحة بجانب الغرفة، ويصنعوا غرفة من القماش لينام فيها الشّباب، وهكذا يتّسع المكان بالدّاخل، ولا يصاب أحمد بالحرج من وجوده بينهم.
أيامٌ وأيام، يمتدّ البرد القارس بعد أن حبس الشّتاء عواصفه وأمطاره الغزيرة، خجلًا من وجه الخيام المنصوبة في كلّ مكان، وخوفًا على الهاربين من الموت بالمدافع من أن يموتوا غرقًا بالأمطار.

في اللّيل ينام الجميع مرهقين متعبين، لا يستطيعون إشعال النّار للدّفء أو الطّهي، تأبى أجسادهم التّحرك من شدّة ما لاقت في يومها من تعبٍ ونصب.

في هذا اللّيل البارد المخيف، لا مدافع، لا وقود، لا أغطية كافية، هكذا يترك النّاس في خيامهم، يبحثون عن مأوى يسترهم، عن مستلزمات لا تكفيهم، حتى ما يصلهم من المساعدات لا تكاد تسدّ رمق احتياجاتهم، لأنّ المحتل لم يترك لهم شيئًا على الأرض، ولا في السّماء، أغلق المعابر والبحار، حاصر أنفاسهم، ذكرياتهم، كلّ شيء حولهم.

من خلف زجاج هذا المقهى الذي أحب المكوث فيه للكتابة، وقد حافظ على بقاء جزء من زجاج واجهة المكان بعد تنظيف الركام، الذي انتقل إليه بفعل قنبلة سقطت على المبنى المجاور، وبينما كان حبري يخطّ أحداث اليوم التي أدوّنها بقلم مراقبتي، قاطعني هذا العابر المسن شكلًا، وأكاد أجزم أنه يتوسط العمر. كان منحني الظهر، عابس الوجه، يضع ورقة ملتصقة على صندوقٍ من الكرتون، يحمله بحبل معلق على رقبته قد يكون سبب انحناءة ظهره، مكتوب عليها: «لا أسمع، لا أتكلم، حبة الكعك بشيكل واحد».

رفعت يدي عن الكتابة هنيهةً، وأعطيته تأمّلي للحظات؛ متسائلًا هل يبيع عجزه بهذه العبارة أم يشتري تعاطف الناس بها؟ هي وسيلة مهنية لإيصال جواب عن تساؤل الناس لعدم ردّه أو سماعه لهم، لكني لا أعرف لماذا شعرت للوهلة الأولى بأنّها وسيلة جديدة للدعاية السلبية، والتسويق العاطفي.

هكذا حرب تفرز الكثير من نماذج التشكيك والتأمل في صواب الحدث، بعد إفراغه من اشتباكه بالتوقعات الخائبة.
لم أكن أرغب في شراء الكعك، لكني تركت طاولتي متجهًا نحوه؛ كي أقنع سائق السيارة التي كادت تدهسه بأن يقرأ ما هو مكتوب على لوحة رقبته، نظر إليّ حائرًا، غاضبًا، مستنكرًا، أنترك كل ما يشغلنا في هذه الحرب، لنقرأ ما يكتب على اللوحات؟!
شعرت وقتها بحزن شديد، وأسى كبير على الحال التي وصلنا إليها، وقد وصل اعتذارنا لتبرير وصمت وانسحاب، امتلأ جوف وجداننا بالسلبيات وعدم الاكتراث، وسؤال كبير عدت به إلى روايتي.

هل تترك هذه الحرب فراغًا ليحمل أحدهم كتابًا فيقرأ رواية، أو نصًّا، أو حتى إشارة تنبيه على الطريق؟!

ينسلّ صباح الخيام مشرقًا من عدسة ليان، التي حملت هاتفها المحمول وأخذت تلتقط الصور من حولها. الأطفال الذين تهالكت ملابسهم، وشاخت ملامحهم، وباتوا حفاة، وتلك النّساء كأسراب الحمام المنفصلة، بعضهنّ يتجمّعن حول موقد الطعام، وبعضهنّ الآخر حول فرن الطّين التّقليدي، وأخريات حول أكوامٍ من الغسيل الذي يودي بنعومة أياديهنّ الأنثوية. كلّ فوجٍ يطوف حول احتياجات الأسرة، تلتقط عدسة كاميرتها الطّرقات، وضحايا الخيام، صورةٌ فوق المصارف كيف أصبحت على وجه

الأرض بدلًا من باطنها، تختلط بها الأقدام، وصورٌ أخرى مميّزة ومختلفة ودقيقة، تحرص على أن تكون هي الأجمل لأحمد، وهو جالسٌ يضع يده على خدّه، فتلتقط له صورة من أجمل ما يكون، تسأله بعد التقاط الصّورة:

«بماذا تفكّر يا أحمد؟»

«لقد قابلت أحد الجيران اليوم في جباليا، وقد أخبرني أنّهم انتشلوا الجثث من تحت أنقاض البيوت، ولم يستطيعوا انتشال الكثير، وفعلوا ذلك بعد شهرين، وحاولوا مرارًا وتكرارًا، ولكنّهم لم يفلحوا بانتشال من بقي. لقد دفنوهم في مقبرة جماعيّة بسبب تكرار اقتحامات العدو".

كان يتحدّث بصوتٍ متقطعٍ مجروح، كان يحدّث ليان كأنّه يحاول الخروج من قيود الذّكريات، ويطفو على سطح الاستسلام للأقدار. يؤنّب نفسه؛ كيف يكون بعيدًا عند موتهم، وعند دفنهم، وعند انتشال جثامينهم، عاجزًا حتّى عن البكاء عليهم؟

وكيف يفتقد ألبوم صورٍ يجمعهم؟ وقد خسر كلّ شيء، حتّى أنّه ما عاد بين هذه الصّور التي يشاهدها ما يذكّره كيف كانت حياته. تحدّثت ليان بما تحدّثت، ولكنّها بكت أكثر ممّا نطق، متأثّرةً بكلامه.

إنّ ما تسمعه وما تكتبه لا يمكن أن تستطيع وصفه في هذه الحرب، التي تدنو وتعلو، وتذهب بالجميع إلى مزيد من الهلاك.

كان راجي منشغلًا بهاتفه، يحدّث أحد الأصدقاء المسافرين إلى مصر، وقد حاول أن يقنعه بأن يتقدّم للسّفر؛ ليستطيع الالتحاق بالدّراسة، وإكمال الثّانوية العامّة هناك، حتّى لا تضيع عليه الفرصة هذا العام، وهو يعلم أنّ الحرب ستطول أكثر من ذلك بكثير. راح راجي بنصيحته إلى أمّه التي نظرت إليه، وكأنّها تسأله ماذا عنّي وعن أبيك الغائب؟ وماذا عن إخوتك؟ وماذا عنّا جميعًا؟ ولكنّها سكتت حين رأت أنّ حاجته ومستقبله قد يكونان أكبر من كلّ ما يدور الآن، لكنّها قالت له: إن كنت ترى مستقبلًا لك بالخروج من غزّة، فلا عليك، اذهب وابحث عن فرصتك، وكلّ ما هو مطلوبٌ منّي سأقدّمه لك، لم يكن مطلوبًا منها سوى مساعدته بمبلغٍ من المال، يدفعه لعمل جواز سفر، ودفع تذكرةٍ للدّخول إلى مصر، هذه التّذكرة التي يدفعون لأجلها أموالًا طائلة حتّى ينجوا بأنفسهم، وإن كان هذا المبلغ الكبير كما قيل مؤخّرًا أنّه وضع منعًا لخروج الكثير من النّاس من غزّة إلى مصر، بحجّة منع الهجرة، فإنّه يسمح للأغنياء، ومن يستطيعون توفير المال بالسّفر والنّجاة، ويقول للبقيّة الباقية من الفقراء، ابقوا هنا للموت المحتّم.

في اليوم التّالي سحبت سيغال جزءًا من ادّخار تقاعدها، وأعطته لراجي، ليكمل ما بدأ التّفكير فيه حول السّفر، وطلبت من يزن أن يتابع الأمر معه، وأن يساعده في أيّ شيء يحتاجه، حتّى لا يتحمّلوا جميعًا مسؤوليّة أنّهم أضاعوا هذا العام منه، وهو عامٌ مهمّ لمستقبل حياته.

***هدنة كاذبة لا تكفي لتصديق أننا ما زلنا على قيد الحياة**

سيفرج عن الأسرى اليهود مقابل الأسرى الفلسطينيين دون تكافئ في الأعداد، ودون تكافئ في المعاملة، ولا حتّى في مدّة السّجن، سيفرج عن المساعدات ويطلق سراح الوقود. عشرة أيّامٍ يتوقّف فيها القتال، وتتوقّف الطّائرات عن التّحليق، وتصمت المدافع قليلًا، ويعود النّاس في الجنوب لديارهم في مناطقهم، للاطمئنان على بيوتهم التي قصفت أو دمّرت أو سرقت، أو بقيت وحيدة مجهولة الهويّة، بعد قتل أصحابها، وبيوتٌ أخرى أصبحت كمنازل الأشباح من هول ما احتملت من قصفٍ حولها. عودة لمن يسكن داخل المدينة، وليس من جنوب القطاع إلى شماله، فالجنوب سيبقى مكتظًّا بالسّكان، بالهموم، بالأحزان، بالأوجاع والحاجات الناقصة. سيبقى مزدحمًا بالأفكار، بالأحلام المقدّسة، وبطلب النّجاة ليل نهار، والشمال سيبقى محاصرًا بالانتظار، مشتاقًا إلى عودة الأحباب، وقلبه يعتصر من حجم الخراب والدمار.

عشرة أيّامٍ من الهدنة دون العودة للدّيار، يبقى الجميع في أماكن نزوحهم، وتبقى الدّبابات في مواقع توغّلها، حتى ينتقل من مرحلةٍ إلى أخرى، والثّمن أقلّ.. أقلّ بكثير، ويبقى يقلّ حتى لا يكاد يكون شربةً بنهر الأمل لنهاية هذه الحرب.

بقيت الأنظار هناك حيث عبد الرّحمن الذي فجأةً عيّنه السّجان (شاويش السّجن)، وأعاد الجيش العمل بالقوانين، بعد أن عطّلها حتّى عن الإنسانيّة.

كلّ صباحٍ يضرب جرس الإنذار لليقظة، ويصطفّ المحتجزون للعدّ، ويستعدّ الشّاويش في كلّ مجموعة لاستقبال وجبة الإفطار. لم تكن رتبةً يتباهى بها السّجين الذي ينالها، لكنّ اختيارات الجيش تكون بناءً على قواعد هو يعرفها، فقد تكون قدرته جيّدة على التّحدث باللّغة العبريّة، وهذا ما دفعهم لاختياره لهذه المهمّة، ولا يستطيع رفض ذلك، قد يعلم أنّه يفيدهم بهذه الرّتبة التي يستطيع من خلالها أن يعبّر عن مشاكلهم وهمومهم واحتياجاتهم.

لقد تعرّف على أحد السّجناء من الذين كانوا في الشّمال، وقد كان يطلب كثيرًا الحديث مع أحد مسؤولي الجيش، وكلّما تقدّم إليه بطلبٍ رفضوه حتّى سأله، «لماذا تلحّ عليهم بالطّلب»، أخبره حينها أنّه يودّ الاطمئنان على ابنه، فقد اعتقل في الشّمال، ولأنّه رفض أن يقتاد ابنه معه إلى الشّاحنة، دفع الجندي بقوّة، حتّى يمنعه عن اصطحاب ابنه، وقد تدخّل الضّابط وقتها، وطلب بنقله إلى شاحنة أخرى، ولكنّه اقترب منه وهمس في أذنه، وعيناه معصوبتين: «لن ترى ابنك بعد اليوم». زرع ذلك في داخله

شعورًا بالخوف على حياة ابنه، وجعله يتوقّع أنّهم سيعدمونه، كما فعلوا في مناطق مختلفة، اقترح عبد الرّحمن أن يطلب ذلك بنفسه، طالما يرفضون طلب مقابلته.
استغلّ عبد الرّحمن مناوبة الطّبيبة هناك، وقد تكلّم معها وجعلها تتفهّم مطلب هذا الرّجل، وعدته بأن تسأل في الأمر، بعد أن سجّلت بياناته، وعرفت مكان اعتقاله.

لم تكن أيام الهدنة سوى محطّةٍ يرتاح فيها جسد الحرب المثقل، لكي يفتّش النّاس عن أرواحهم وممتلكاتهم، ويعيدوا ترتيب نزوحهم، ويلتقطوا أنفاس ركضهم هروبًا، لا شيء مختلف سوى أنّ آلة القصف تعطّلت قليلًا من قبل من يملك أمر تشغيلها متى شاء.

أعطتني الهدنة مساحة للذهاب إلى طبيب الأسنان، ومعالجة طاحونتي التي لم أعد أجد لها المسكنات القوية، فبدأت تعيق مجالس الطعام، وجلسات الكتابة من شدة الألم. لم أعرف أنّ الألم الحقيقي كان ينتظرني عندما دخلت العيادة، ووقفت مقابل مرآة مستطيلة الارتفاع، معلقة على الحائط. شهدت نفسي فيها بعد أشهر طويلة من الحرب، صدمت من رؤيتي لي بهذا النحف والهزال، والشعر المنكوش المجعد، وتجاعيد الوجه التي تكاد تخفي لمعان عينيّ العسليتين.. قاطعني الدكتور شادي متعجبًا

مـن عـدم ردي عليـه بالتوجـه نحـو كرسـي الأسـنان، وهـو مهتـم للوقـت الـذي لا يـكاد يكفـي لعـدد المنتظريـن دورهـم للفحـص، "مـا بـك؟!"

«لا شيء، فقط لم أكن أنا من رأيت على المرآة».

قـد فكـرت وقتهـا كيـف تغيّرنـا مـن الداخـل، أو مـا الـذي سـتؤول إليـه أنفسـنا بعـد الحـرب؟!، لقـد خسـرنا أشـياء كثيـرة؛ فنحـن لـم نخسـر أموالنـا وأوزاننـا وأشـكالنا فقـط، وإنمـا خسـرنا كثيـرًا مـن ذكرياتنـا ودواخلنـا أيضًـا.

لا طعـم لهدنـةٍ طبخـت علـى نـار الأرواح والتّدميـر، لقـد صعـق العائـدون إلـى بيوتهـم مـن هـول مـا رأوه مـن خـراب، أمـا بعضهـم ممّـن سـلم بيتـه أحـس وكأنّـه يتيـمٌ بيـن البيـوت المجـاورة المدمّـرة حولـه.

لقـد حملـت الطبيبـة صفـة الرحمـة بعيـدًا عـن شـعار دولتهـا المحتلـة، وعدوانيتهـا علـى غـزة. أخبـرت عبـد الرحمـن أن ابـن ذاك الأسـير بخيـر، وأنهـم تركـوه فـي غـزة ولـم يصحبـوه إلـى السـجن أو يعدموه، كمـا كان يشـك ويتخيـل، كان يريـد سـجنه مرتيـن، مـرة فـي المعتقـل الإسـرائيلي، ومـرة أخـرى فـي معتقـل يعقـوب وقلقـه علـى ابنـه يوسـف.

خرجت أسرة عبد الرّحمن إلى بيتهم مستغلين الهدنة المعلنة، قاصدين تفقّده والاطمئنان على وجوده، لم يكن هناك أيّة ملامح تدلّ على مكان سكنهم، مشوا فوق الرّكام، هامّين بالبحث عن علمٍ يرشدهم إلى حيث كانوا يسكنون، فوجدوا أنفسهم فوق منزلهم، وقد صار أسفل منهم. يقول يزن إنّ الصواريخ استهدفت بيتنا على وجه الخصوص، وقد تأثّرت البيوت المجاورة، فلم يتركوا فيه عمودًا واحدًا، حتى سوّي البيت بالأرض.

أدارت الأمّ ظهرها، وأشارت إليهم بالبحث عن أشياء قد تفيدهم، وابتعدت عن هذا الخراب الذي أصاب البيت، وأصاب ذاكرتها في مقتل، حتى مرّ شريط الذّكرى منذ بدأ إنشاؤها لهذا البيت مع شريك حياتها عبد الرحمن، بصبرها وصمتها، وقلّة حيلتها. رتّبت فلسطين مع عزّ الدين زيارةً للأمّ سجى، واتّفق الأبناء على إنهاء هذا الخلاف الذي طال مع الحرب وأوجع الجميع، عزّ الدين عايش ما عانته أمّه من صعوبات، فهو يعلم كم عانت وكم جاهدت من أجل الاستمرار، ولكنّ حبّه الشّديد لوالده جعله يعتقد أنّها تستطيع العودة لأصلها اليهودي، ولو لمرةّ واحدة تساعد فيها زوجها وتخلّصه ممّا هو فيه الآن، ثمّ تستعيد فلسطينيّتها. وقد بيّنت له أمّه أنّ لهذه المرّة الواحدة ثمن يدخلنا في دوامّةٍ تغرقنا جميعًا، ولن تعيدنا لحياتنا الطّبيعية مرةً أخرى، ثم أردفت أنّ هذه الحرب لم تكن على الفلسطيني فقط، وإنما أيضًا على كلّ من يقف في وجه المحتل، أيًّا كانت جنسيّته، وأينما امتدّت أصوله.

علـم عـزّ الدّيـن أخيـرًا مـا كانـت تقصـده والدتـه، واستشـعر فـي لحظـة تفكيرٍ عميـق مـدى خطـأ معتقده فـي اتّهامهـا بالتّقصيـر، وهـو خيـر شـاهدٍ علـى حبّهـا لوالـده، وصبرهـا وصمودهـا فـي وجـه كلّ المعيقـات التـي كانـت تحـول بينهمـا وبيـن كلّ مـا يقـرّب بعضهمـا مـن بعـض.

احتضنـت سـجى ولدهـا وبكرهـا عـزّ الدّيـن، وطـوت خلافهمـا، وأراحـت قلبهـا مـن حـزنٍ أثقـل علـى روحيهمـا، استغلّ يـزن هـذا المشـهد، وأراد أن يعلـن عـن فرحـةٍ قـد لا تكـون دائمـة، لكنّهـا تلطّـف الأجـواء قليـلًا ولـو بابتسـامةٍ عميقـة.

لـوح بألبـوم صـورٍ تـآكل نصفـه مـن هـول النّيـران التـي نشـبت فيـه جـرّاء القصـف، وكان أهـمّ هـذه الصّـور تلـك التـي تجمـع الأمّ والأب والأبنـاء، اجتمعـوا حـول ألبـوم الذّكريـات وعـادوا لحديـث الماضـي، وكان أحمـد يرقبهـم بدمعـةٍ يختلـط فيهـا الفـرح لأجلهـم، والحـزن علـى نفسـه، فلمحـه عـزّ الديـن وربّـت علـى كتفـه، وتحـدّث إليـه طويـلًا فـي الأمـر، وأراد أن يكمـل مسـيرة الأمّ ويغلـق علـى أحمـد أيّ تفكيـرٍ خـارج إطـار أسـرته الجديـدة، وأراح جسـد الحـزن بمزحـة لطيفـة حيـن قـال لهـم: أنـا حزيـن علـى احتـراق الصـورة التـي كانـت علـى المكتـب، أعتقـد أنّهـا لأمنـا سـجى ولكـن أخبرونـي مـاذا كان مكتـوب أسـفل الصـورة.
أجابـوا جميعًـا بضحكـة عاليـة واحتضـان كبيـر لـلأمّ: مكتـوب سـيغال باللغـة العبريـة.

عشرة أيّامٍ فقط كانت الهدنة وانتهت، لم يتمكن أحد من الزراعة أو الحصاد، ولم تكف للملمة الجراح ومواساة القلوب المنهكة، إنّها الحرب تعود وتكشّر عن أنياب قصفها، تعود أشرس ممّا كانت عليه، وتبدأ من حيث توقّفت، وتعلن عن اجتياحٍ كاملٍ لمدينة خان يونس. تحرّكت الدّبابات سريعًا نحو الغرب، الذي كان يعتقد أنّه مصنفٌ ضمن المنطقة الآمنة، كونها تقع جهة الغرب، وبها مبنى الأونروا الذي ما زال موجودًا هناك، وبها أيضًا آلاف الخيام المنصوبة، ولكن ترسانة العدوّ لا تأبه لكلّ إشارات الإنسانية حين يتعلق الأمر بالقتال.

حاصروا المنطقة الصّناعية، قطعوا الاتّصالات والطّرق، وفتحوا طريقًا واحدًا للخروج، وحلقت الحوّامات الصّغيرة فوق رؤوس الخيام والنّازحين، تخبرهم بالخروج إلى رفح عبر الطّريق المحدّد لذلك.

التفّ الجميع حول الأمّ باستثناء يزن، الذي عاد إلى عمله في مستشفى دير البلح وبقي عالقًا هناك، جمعت الأسرة ما تستطيع جمعه، وأخبرتهم الأمّ أنّ لا يكثروا من الأغراض، حتّى لا يرهقهم حملها، وكي يتمكّنوا من الحركة والمشي بسهولة، إلا أنّها وجدت أحمد يحمل على كتفه أنبوبة الغاز، وبيده كيس كبير يحوي أدوات مطبخ، عارضته لكنّه أقنعها أنّه يستطيع ذلك. حملت علياء وليان الملابس، ثمّ طلبت ليان منها أن تترك ذلك لها، وأن تمسك بيد عبد الرحمن وتهتم بحمل جنينها، واهتمّ راجي بالأغطية التي وضعها فوق رأسه.

إطلاق نارٍ كثيف من الدّبابات، عجّل في إخافة الناس وإرهابهم، ليتحرّكوا سريعًا نازحين نحو الحاجز الذي يسمى «حلاّبة» تحلب المارّين تفتيشًا وتخويفًا وتهديدًا وتصل إلى حلبهم المارين ذاتهم، حين يعتقلون البعض ويقتلون البعض.

ساعتان وأكثر، تجمّع النّاس على مدخل الحاجز في انتظار أمر المرور، الطّائرات الصّغيرة كانت تدور حول النّاس، وكأنّها تبحث عن وجوهٍ تغتالها، فقد كانت تطلق النّار على كثير من الأشخاص، ولا أحد يستطيع التّحرك.
بحركةٍ ذكيّة من راجي، أسقط بجانبه الأغطية التي كانت على رأسه، وطلب من علياء الجلوس عليها، فلن تحتمل الوقوف أكثر من ذلك.

تحرّك أحد الأبناء لرفع والده الذي تلقى طلقةً قاتلة في الرأس، فأطلقوا رصاصةً عليه، والتحق به، كانت التّعليمات أن يبقى الجميع وقوفًا دون حركة، ومن يخالف ذلك يعرّض نفسه للموت.
تصبب الجميع عرقًا، أجسادهم ترتعش خوفًا، أقدامهم تهتز ثقلًا، وجوههم سوداء كالحة، وعين سجى على أحمد الذي ظهر عليه التّعب، وليس من السّهل أن يخطو خطى راجي، فما يحمله على كتفه هي جرّة غاز، وليس أغطيةً لا يضمن كيف يحلّل العدوّ إسقاطها، وهو لم يفكّر بذلك، بقدر ما أنّه خشي أن يخسر جرّة الغاز التي يعلم أنّه لن يجد عوضًا عنها، همست له الأمّ بصوتٍ خافتٍ أن يلقي بأنبوبة الغاز خلفه، ويريح كتفه من هذا الحمل.

طلقـةٌ أخـرى، فأخـرى، أغلقـت الأمّ عينيهـا، ثـم أخـرى فأخـرى، حتـى صرخـت فـي وجـه الطّائـرة التـي حامـت حولهـا، وهـي تـردّد: «كفـى قتـلًا! كفـى تعذيبًـا!" معتقـدةً أنّ الطّلقـات أصابـت أحمـد بسـبب مـا همسـت لـه بـه.

فتحـت عينيهـا والدّمـاء علـى وجههـا إثـر سـقوط أحـد الرّجـال بجانبهـا، ابتلعـت ريقهـا وأعـادت تماسـكها، واقتـرب الأبنـاء منهـا أكثـر، متلاصقيـن بأجسـادهم، ومـا زال أحمـد متمسكًا بأنبوبـة الغـاز. بعـد دقائـق مرتقبـة، أمـر الضّابـط الإسـرائيلي الـذي أخـرج رأسـه مـن دبّابـة علـى مـدّ البصـر، أن يتحـرّك الجميـع فـي طوابيـر ثلاثـة: الكبـار، والسّـيدات، والشّـباب، ليجتـازوا الحاجـز تحـت أعيـن الكاميـرات.

سـاعةٌ أخـرى تسـير فيهـا الأسـرة منفصلـة؛ لتعـود مجتمعـةً بأعجوبـةٍ بعـد قطـع حاجـز التّفتيـش.

حينهـا انهـارت الأمّ وجثـت علـى ركبتيهـا تجهـش بالبـكاء، لـم يكـن مشـهد القتـل أمـام عينيهـا، وتناثـر الدّمـاء علـى وجههـا بالأمـر الـذي يقـاس بمـا احتملتـه مـن مصاعـب فـي حياتهـا، والذّعـر الـذي هزمهـا، كان بسـبب خوفهـا علـى أن يصـاب أحـد أفـراد أسـرتها بطلقـةٍ أخرى. مسـحت دموعهـا والأبنـاء مـن حولهـا يسـتنهضون همّتهـا، اطمأنّـت علـى علياء وحملهـا، ثـمّ أكملـت المسـير متحدّيـة نفسـها، وهـي علـى يقيـنٍ أنّ مـا ينتظرهـم أعظـم بكثيـر ممّـا تركـوه وراءهـم.

ورد اتّصالٌ هاتفيٌّ من عزّ الدّين بعد فترةٍ طويلة من انقطاع الاتّصالات، ومحاولات حثيثة منه للاطمئنان عليها، وكان من الصّعب عليه أن يدعوها إلى بيته في دير البلح، لأنّ العدو حدّد وجهة النّزوح إلى رفح، وقد عرض عليها أن تتّصل بعمّه الذي يسكن في رفح، وهو يعلم أنّه على خلافٍ معها، لكنّه أراد أن يقول إنّ هذه الحرب لا مكان فيها للخلافات والعداوات، ولكنّها أجابته بأنّ هذه الحرب بالذّات ستجعل منّي العدوّ اللّدود لهم، كما ألقوا اللّوم عليّ سابقًا..

اقتنع عزّ الدّين برأيها، واقترح عليها النّزوح في مخيمٍ غرب رفح، حيث أصدقاؤه هناك، سيساعدونها في الحصول على خيمةٍ تأويهم.

وصلوا أخيرًا بعد عناءٍ طويلٍ ومشقّة، استقبلهم صديق عزّ الدّين وأمّنهم في خيمة، ووفّر لهم ما يحتاجونه.

لم تكن نهاية الشّتاء ملاذًا أخيرًا لنهاية معاناة النّاس في الخيام، ولم يكن الرّبيع القادم بداية أملٍ جديد، يحصد النّجاة لهم، بل كانت الحرب مستمرّةً لا تعترف بفصول الطّبيعة ورغبات الإنسان.

الرغبات لا تؤمن بها الأقدار، حتى لو احتمت بقوانين الحب، وتعاويذ المعجزات.

الحب الذي يفسد الحكايات الطويلة، ويكتوي بنار الحرب والحواجز الفاصلة، هذا الشاب الذي صنع من نفسه أسطورة لكي ينفذ من أبواب الموت، ويقطع الطريق من الشمال إلى الجنوب تحت أزيز الرصاص؛ كي يوقف زواج محبوبته، حاول مرة تلو مرة، تلو مرة، والقنابل تتصدى لمحاولاته بالعودة، ولم يكن الوقت حليفه، ولم تكن الاتصالات المقطوعة إلا كصب الزيت على النار.

طالت الأيام بمحاولاته نزوحًا برغبته، لم ينزح بفعل الرصاص المتناثر في الطرقات، ولا خوفًا من سقوط المباني فوق جسده الصغير، ولا هربًا من جوع حاصره المحتل بمنع دخول الطحين، لقد نزح زحفًا نحو خلاص ما تبقى من ضوء في قلبه، ولكن القدر أراد أن يثبت استفراده بسير الأحداث، يريد صنع أثقاله دون أن يهتم بالأوزار، يريد تقسيم النصيب دون أن يقام للعدل ميزان، حين وصل أخيرًا إلى حيث تقطن محبوبته، وبعد أن اجتاز خطر الحواجز العسكرية التي قد تكون وقت اجتيازه لها انشغلت آلات الحرب بالقتل في مكان آخر.

كان بمروره إلى الجنوب قد ضاف لراء الحرب حرفًا بجمع الواو تجعل الحياة حروبًا بنار الحب وخسارات الخذلان، تزوّجت محبوبته من ابن عمها، الذي رأى الأقارب أن سترة البنات في هذا التوقيت من الحرب والنزوح والخيام، أخفّ حملًا وأكثر حفظًا من سابقتها، وقد كشفت الخيام ستر العادات، وقد طالت

الحرب في غزة حتى على وعود الأحباب. يئس الناس من ربط الأفعال وتأجيلها بنهاية الحرب، وهل العواطف أيضًا سنؤجلها لبعد الحرب؟ لم يعد أحد يثق بأن هناك نهاية لهذه الحرب، تعمدوا أن يكون هناك نهاية لهذا الحب.

عاد منهزمًا مغلوبًا على أمره، ممتلئًا بحواجز البعد والافتراق، لقد كانت قصته تحكى في الطرقات والمقاهي وبين ألسنة الزحام، لأنّه فقد أعصابه حين وصل إلى مخيم النزوح، وعلم أنّها في خيمة الزوجية، ولم يحتمل أن رجلًا آخرَ اغتنم فرصة اصطياد غزالته؛ ليغلي في عروق دمه الغيرة والحقد على واقع الأقدار، ويضرب بحديد غضبه رأس هذا الزوج الذي نصّب نفسه حبيبًا جديدًا، كما تفعل الحرب بجغرافيا الأماكن وتستبدل العناوين والأشخاص.

لسنا هابيل وقابيل، إنها الحرب التي لا تعطي الفسحة للتعقل، ولا تعطي اللحظة الحقيقية للسكون الروحي، بل تدفع الناس للغضب والانتقام.

قرر العودة إلى الشمال وهو يعلم خطورة ذلك، أخذ يتنقل من جدار إلى جدار أسفل أزيز الرصاص وصوت جنازير الدبابات، كان ملاصقًا لسور طويل من ركام الجدران، وكاد ينفذ في الطريق الجانبي حتى رأى إحدى الدبابات تقف أمامه مباشرة، مكث جالسًا في انتظار فرصة للتحرك، لقد كانت المسافة المقطوعة أشبه بالمشي على حبل بين جبلي نار، ليكون الإياب مشتعلًا كالذهاب.

لـم يجـد لنفسـه خيـارًا إلا المضـي نحـو الشـمال، حيـن أدلـى برأسـه ليـرى أفقًـا فـي طريـق نظـره خاليًـا مـن وحـش المـوت، الـذي أغلـق منفـذ رؤيتـه بقذيفـة موجهـة مـن فوهـة المدفـع نحـوه، لتطـوي صفحـة خوفـه، وتطـوي صفحـة غضبـه، وتطـوي صفحـة تفكيـره بالجـوع فـي الشـمال، وتطـوي صفحـة قلقـه علـى حالـة الرجـل الـذي ضربـه علـى رأسـه وفـرّ.

لقـد طـوى القـدر كتـاب حياتـه؛ فلـم يعلـم فيمـا بعـد أنّ الرجـل الـذي تـزوج حبيبتـه قـد مـات إثـر ضربتـه تلـك، لـم يعلـم أنّ هـذه الحـرب لا تعتـرف بقـوم آدم وحـواء، ولا يهمهـا قابيـل أو هابيـل، هـذه الحـرب لحصـاد الأنفـاس والأرواح، ودكّ القلـوب والعقـول، وتـرك أرملـة الحـب والـزواج تعافـر الحيـاة مبتـورة القلـب والـروح.
كأننا بهذه الحرب نحصد الغفران عن ذنوب لم نزرعها.

لـم يهـن علـى عـزّ الدّيـن أن تنـام عائلتـه في خيمـة، فاتّصل علـى عمّه فـي رفـح، وأخبـره عـن نـزوح عائلتـه هنـاك، وقـد صـدم حيـن علـم أنّ عمّـه يستضيف عمّاتـه اللّواتـي كـن السّـبب الرئيـس فـي الخـلاف القديـم، وعلـى الرّغـم مـن أنّ عمّـه أبـدى اسـتعداده لاسـتقبالهم، فـإنّ عـزّ الدّيـن وجـد أنّـه مـن الأنسـب أن تبقـى أمـه وإخوتـه فـي خيمـة، أفضـل بكثيـر مـن وجودهـا بيـن عمّاتـه، وخاصّـة عمّتـه الكبـرى، التـي مـا زالـت تنعـت أبنـاء أخيهـا «بأبنـاء اليهوديّـة».

أحمد، هذا الشّاب الثّلاثينيّ طويل القامة عريض المنكبين، يعرف أنّه لم يكن نحيفًا كما هو عليه الآن، عيناه عسليّتان تعكسان ألوان الطّيف ببعض من الخضرة، وتدلّل على ما كان عليه من بياضٍ للبشرة، حمل مسؤوليّة هذه الأسرة التي احتضنته، واستغلّ في مساحةٍ قريبة من الخيمة مكانًا صغيرًا من القماش ينام فيه بجوارها.

شقّت سجى باب خيمتها مع شروق شمسٍ ساطعة ظاهرة بجسدها الممشوق، رغم كبر سنّها فإنها تلقي بنظرها من أعلى منطقةٍ في رفح، تسمّى منطقة «العلم» على مدّ الخيام، غربًا ترى البحر كأنّه ممتدٌّ على مدّ بصرها شرقًا، وكأنّها تغرق في بحر النّزوح. رأت أحمدَ يقف مع شخصٍ كأنّها تعرفه، فنادت تتأكّد:» إسماعيل؟!"

التفت إليها ليؤكّد لها أنّه هو، اقتربت منهم وقد كان صديق زوجها الذي كان يعمل معه، وقد اعتقل أيضًا قبل اعتقال عبد الرّحمن، فاستغربت أنّه مفرجٌ عنه، وكانت بالصّدفة حين سألته عن مصير زوجها عبد الرّحمن، قال إنّه اجتمع به في السّجن، وكانا معًا طوال تلك الفترة حتّى أفرج عنه، وقال إنّه بخير وصحّة جيّدة.

معلومة صغيرة قد تكون بذرة لشجرة أقدار كبيرة.

مكبّر الصّوت المعلّق في ساحة المعتقل ينادي على عبد الرّحمن، «التّوجه إلى البوابة الرّئيسة»، نفض عبد الرّحمن جسده حين أشار إليه المعتقلون لسماع اسمه، فتوجّه فورًا نحو البوابة التي تفصل بينهم وبين بوابةٍ أخرى، يلتقيه فيها جنديّان. أوقفه أحدهما وكبّله الآخر بقيود في يديه، وسلاسل بين أقدامه، واقتادوه إلى غرفة الإدارة.

دخل غرفة مكيّفة فيها أثاثٌ بسيط، طاولة مكتب خلفها كرسي مريح، وجلسة كنبٍ يعلوها سقف يحمل مروحة ليسوا بحاجة إلى تشغيلها، وإنارة مصباح استعاضوا بها عن فتح النّوافذ.

فكّ الجنديان قيده، وتركاه يجلس على الكنبة منتظرًا، وخرجا ولم يكن معصوب العينين كما اعتادوا أن يفعلوا مع السّجناء، وقد شعر للحظةٍ أنّه سيخرج من هنا، اعتقد أنّ هذا الإجراء معمول به لمن سيفرج عنه. دخل أحد الضّباط وجلس على كرسي مكتبه، عرض عليه السّجائر وهو يقول له: "أنا أعلم أنّك لا تدخّن، تفضل». رفضها عبد الرّحمن شاكرًا، أبدى له الضّابط معرفة كلّ شيء عنه، وأنّه سيكون واضحًا معه مثلما توقع عبد الرّحمن، فقرر أن يكون معه واضحًا وصريحًا، فهو لا يملك أيّ معلومةٍ تفيد في هذه الحرب.

- الضّابط: أنا أعلم أنّك عملت في إسرائيل لفترةٍ طويلة، ولا دخل لك بكلّ التّنظيمات المسلّحة، وأعلم أيضًا أنّك لا تمتلك أيّ معلومةٍ تفيدنا في القتال، ولكن أخبرني صراحةً، ما رأيك بما حدث في السّابع من أكتوبر؟

تصبّب عبد الرّحمن عرقًا وهو يجيب سؤاله بسؤال، ما رأيك أنت بما يحدث لي من ضربٍ وتعذيبٍ واعتقال؟ وقد صرّحت بأن لا علاقة لي بما حدث.
أعلم أنّك تحبّنا وتحبّ دولة إسرائيل، كيف لا؟ وقد تزوّجت ابنة إسرائيل «سيغال»

لم يتوقّع عبد الرّحمن هذا الحديث، بل دهش وظهر على وجهه الارتباك. لم يجد عبد الرّحمن ما يقوله، فأكمل الضّابط حديثه: «هل تعيش سيغال جيّدًا في غزّة؟»

- الحمد لله أنجبنا خمسة أولاد، وبنينا بيتًا في خان يونس، صحيح أننا تعبنا قليلًا، لكنّنا ما زلنا معًا.

- أووه، صحيح، البيت، وردني أنّه دمّر بالكامل..

وقف عبد الرّحمن ووجهه شاحب أسود، يصرخ في وجهه متسائلًا، وماذا عن أسرتي؟

- اهدأ اهدأ، إنّهم بخير.

كان الضّابط يتحدّث اللّغة العربيّة بطلاقة، لكنّه حين قال له سنعوّضك عن كلّ شيءٍ، قالها بالعبّرية.
طرق البابَ أحدُ الجنود، ودخل ومعه مشروب «الكوكا كولا» البارد، لم يتردد عبد الرحمن في تناول الكوكا كولا؛ ليطفئ حرارة جسده التي ارتفعت من طريقة حوار الضّابط التي تثير الأرق.

أعلم جيّدًا أنّك لن تخون شعبك، ولكنّك تستطيع إقناع سيغال بذلك، وكلّ ما نريده هو أن تجمع لنا بعض المعلومات عن بعض المخرّبين في غزّة..
وقف عبد الرحمن وقال: ما لا تعرفه عن سجى الآن أنّها فلسطينيّة مسلمة، ولن تبيع أبناءها وأبناء جلدتنا.
لم يشدّد الضّابط على مطلبه، ابتسم في وجهه وأنهى حديثه بكبسةٍ على زرّ النّداء الموجود على طاولته، فدخل الجندي وهو يقول لعبد الرحمن: حسنًا حسنًا، ونحن سنفرج عنك عمّا قريب.
خرج عبد الرّحمن وهو خائفٌ جدًّا على أسرته، لا يعلم إن كان الضّابط يخبره الحقيقة عن حياتهم، وعن نيّتهم الإفراج عنه.

هذه الحرب آلة حصادٍ تقلع جذور السّنابل، حين تقتل الأطفال والنّساء.

وفّرت سجى احتياجات ضروريّة بصعوبةٍ، وساعدتها فلسطين بمدّها ببعض أدوات المطبخ والأغطية الفائضة عن احتياجها، على الرّغم من صعوبة الاستغناء عن أيّ غرضٍ كان، بسبب ازدياد عدد النّازحين من أهل زوجها.

في جلسةٍ أسريّةٍ، وبينما كانت فلسطين في زيارةٍ لأمّها، ورد اتّصالٌ هاتفيٌّ لأمّها ولكنّها لم تجب.

رنّ الهاتف مرّةً أخرى، وشعرت فلسطين بأنّ هذا الاتّصال من جدّها، فأخذت الهاتف من أمّها.

«يا جدّي، كيف أنت، نحن نشتاق إليك؟»

«فلسطين؟!»

«نعم،»

«أنت تعلمين أنّي أحبّك جدًا يا صغيرتي»

«وأنا أحبّك يا جدّي، وعتبي عليك، سنوات لم تسأل عنّا فيها»

«أعلم أنّي مقصّر يا فلسطين، دعيني أتحدّث إلى أمّك فلديّ أخبارٌ سارّة»

لقد أخبرهم أنّ عبد الرّحمن سيفرج عنه قريبًا، وأنّه بصحّةٍ جيّدة، لقد تأثّر كثيرًا بحديث فلسطين، لكنّه لا يستطيع أن يكسر قواعد اللّعبة، ولا أن يغيّر مواضع الصّراع، وأن يصنع أوسلو حقيقيًّا بزواج ابنته اليهوديّة من عبد الرّحمن الفلسطيني.
من فرحة الأمّ، طلبت من أحمد أن يبحث لها عن أرز ذي حبّةٍ طويلة، مهما كان ثمنه، كي تستعد يوم وصوله لطبخ «المقلوبة» الأكلة الأشهر في فلسطين، والمفضّلة لدى عبد الرّحمن على الرّغم من أنّ أساسها اللّحم أو الدّجاج، الذي فقد وجودهما منذ فترةٍ طويلة إلا أنها ستقوم بطبخها دونهما.

تقلّب ليان الصّفحات الإخبارية؛ لتجد خبرًا يسعدها بالإضافة إلى خبر انتظار والدها: إعادة فتح شارع الرّشيد للحركة؛ ليصبح لديهم فرصةٌ للذّهاب إلى عزّ الدّين والبقاء معه في دير البلح؛ ليجتمعوا معًا من جديد.

وكانت علياء الأسعد بهذا الخبر، والتي كانت تشغلها الولادة في هذه الحرب، لقد قرأت تقريرًا لوكالةٍ دوليّة تبيّن أنّ عددًا كبيرًا من النّساء اللّواتي ولدنَ في الحرب تعرّضن لمخاطر الإجهاض، كان خوفها فوق سطح الأرض، وفي باطن رحمها، لكنّها ستلتقي أخيرًا بزوجها يزن، الذي علق هناك في مستشفى دير البلح، وسيقيمون في بيتٍ بدلًا من الخيمة، ما سيعينها على تجاوز هذه المخاوف.

في اليوم التّالي، بدأت الأسرة بتحضير نفسها للذّهاب إلى دير البلح، وقد قرأ راجي في صفحة الأخبار على التّيليجرام أنّ هناك قصفًا شديدًا في دير البلح والنّصيرات، وأنّ عدد الشّهداء وصل لمئتين أو أكثر، وطلب من ليان التّواصل مع أخيها عزّ الدّين، لكي تطمئنّ عليه، وتستفسر عن مدى سلامة الطّريق إليه، لكنّه لم يجب على الاتّصال.

حاولت مع زوجته، ولكنّها أيضًا لا تجيب، حاولت مع يزن أيضًا، لا يجيب...

توتّرت وتوجّهت إلى أحمد، ليحاول هو أيضًا، وحتى لا تقلق الأمّ أخبروها أنّ السّيارة التي ستنقلهم ستتأخّر قليلًا.

شعرت سجى بقلقٍ كبير، خاصّة بعد أن سمعت النّاس يتحدّثون عن عمليّةٍ كبيرة في منطقة الوسطى، تهدف لتخليص أسرى إسرائيليّين وكان ضحيّتها تدمير عددٍ كبيرٍ من المباني، وسقوط عددٍ كبيرٍ من الضّحايا، وزادها قلقًا أنّها علمت أنّ أبناءها حاولوا الاتّصال بعزّ الدّين وزوجته، ولكن دون استجابة.

وأخيرًا وردها اتّصالٌ من يزن، بصوتٍ خافتٍ حزين: عزّ الدّين يا أمّي هنا في المستشفى مصاب، وزوجته أيضًا وأبناؤه..

كانت على الهاتف مصدومةً، لا تعرف بماذا تجيب، وكيف تجيب، وقفت هكذا دون النطق بكلمة واحدة، كأنها المدينة التي تقام عليها الحرب، كأنها السلام الذي لم يقتنع به الغرب، كأنها الوحيدة المتشبّثة بحبها وبالأرض وما زرعت فيها من أبناء وذكريات.

أخذت ليان الهاتف واستفهمت من يزن ماذا حصل.
علمت أنّ الضّربات العشوائيّة، التي قام بها العدوّ من أجل تمويه عمليّة اقتحامهم في النّصيرات، أصابت بيت عزّ الدّين، وقد أصيبوا جميعًا، ودخل هو وزوجته إلى غرفة العمليّات.
اقترب أحمد من هذه المرأة الخمسينيّة، هادئة السّريرة، الطّيبة، رقيقةِ القلب، النّقية، ذاتِ الشّخصية القويّة، أمسك بيدها وهمس لها: سيكون بخير، دعينا نذهب جميعًا إلى المشفى.

استشعر أحمد للحظةٍ أنّه قد يكونُ سببًا لهذا النّحس الذي أصاب هذه الأسرة، ما إن تتلقّى خبرًا سارًّا، حتّى يتبعه خبرٌ حزين، يقطع عليهم أوصال الفرحة، لكنّ الأمّ قاطعت أفكاره الزائفة، وطلبت منه تحضير سيّارةٍ لأخذها إلى المشفى، وفرضت على راجي البقاء مع أخته وزوجة أخيه في الخيمة حتّى يعودوا، فلا الطّريق ولا المشفى يحتمل أن يتحرّكوا جميعًا في ظلّ أحداث الحرب.

تحرّكا إلى المشفى، ووصلا بعد عناءٍ من ازدحام الطّريق بالعربات، واصطفاف الخيام وحركة النّاس في الطرقات، التقيا يزن هناك، وقد دخل عزّ الدّين العناية المركّزة بعد أن اخترقت شظيّةٌ من صاروخٍ جسده، واستقرّت بجانب قلبه، الصّورة المقطعيّة التي أجراها الأطبّاء له، جعلتهم يعلمون أنّه من الصّعب إجراء عمليّة جراحيّة، لهذا قرّروا أن يبقى في العناية المركّزة.

أمّا زوجته التي خرجت من غرفة العمليات بعد ساعاتٍ طويلة، فقد بترت قدماها، وما زالت لا تعلم بأنّها فقدت ابنها الأكبر، في حين نجت ابنتاها الصغيرتان.
أوضح يزن الأمر لأمّه، وتباحث معها متسائلًا كيف يمكن الإسراع في إجراءات إخراج عزّ الدّين وأسرته للعلاج في الخارج.

اتّصلت الأمّ بطبيبٍ جرّاح تعرفه منذ زمن، وكان من حسن حظّهم أنّه يعمل في المشفى ذاته، بل أنّه مقيمٌ فيه بعد أن خسر أسرته في قصفٍ لأحد العمارات السّكنية.
اطّلع الطبيب على حالة ابنها، وأكّد أنّ إجراء عمليّة في ظلّ النّقص الحاد الذي تعاني منه المستشفيات لن يكون لصالح حياته، وأنّ الحل بأن يبقى مخدّرًا دون حركةٍ، ليضمنوا استقرار الشّظية بعيدًا عن القلب، حتى يتمّ نقله للعلاج في الخارج.

لم يكن هذا ما رمى له يزن في مباحثاته مع والدته، فيستطيع هو فعل ما قامت به في المشفى دون تدخلها واتصالها بصديقها الطبيب، بفعل مجال عمله وعلاقاته أيضًا، لكنه لم يجرؤ أن يقول لها قصده بأن تتصل بأحد معارفها في إسرائيل ليسرّع في أمر التحويلة الطبية.
ذهب وبدأ بإجراءات تحويلة العلاج في الخارج، وقد ساعده الطّبيب في تسريع هذه الإجراءات عبر علاقاته، وبقي الوقت الذي يتأخّر فيه الرّد الإسرائيلي يزيد عن عشرين يومًا.

اتّصلت والدة علياء تطمئنّ عليها، وعلى حملها، وتسأل عن أخبار عزّ الدين التي علموا بها عبر صفحات الإنترنت، وحاولت أن تستجديها بأن تترك هذه الأسرة التي تعتقد أنّ اللّعنة أصابتها؛ لأنّ فيها امرأةً يهوديّة، دافعت علياء عن «سيغال» لأنّها تحبّها كثيرًا، فهي لم تر منها أي سوءٍ أو قسوة، ورفضت ترك زوجها، والذّهاب إليهم على الرّغم من صعوبات العيش في خيمة، وكالعادة تغلق أمّها الهاتف في وجهها، لأنّها لا تحبّ سماع أيّ إطراءٍ يخصّ سجى.
بقيت الأمّ سجى في المشفى، بعد أن استطاع يزن الاستئذان من أصدقائه من فنّيّي الأشعة، بأن تقيم الأمّ في غرفتهم الخاصّة.

«ما زلت مستيقظًا، يا أحمد؟!»

«ليان! ما بك؟»

«خائفةٌ جدًّا»

«لا تقلقي، القصف في مكانٍ بعيد»

«ليس القصف، ولكنّي أخشى أن يصيب أخي مكروه، أخشى على أمّي، أخشى أن تكون هذه الحرب لقتلنا جميعًا»

أحيانًا يكون الحب ذريعة الهروب من واقع الحرب.
الرسائل النّصيّة عبر الهاتف استمرت وقتًا طويلًا، تبادل كلاهما الحديث عن الخوف، والحياة، والأمل، والنّجاة، وعن الصّفات

قبل الحرب، يستذكران الذّات التي استشعرا أنّهما يفقدانها كثيرًا في انشغالات معارك المعيشة اليوميّة، وكأنّها رسائل يريح فيها كلاهما هواجسه، وما فاض من كبتٍ وضغطٍ ومشاعر مكبّلة، لقد ارتاحا للحديث معًا كأنّهما يرصفان طريقًا لعلاقةٍ أكبر، من كونهما أسرة تعاني الحرب.

لم تنم سجى طيلة اللّيل وهي تفكّر في طريقةٍ تساعد فيها ابنها للسّفر والعلاج، وكان ما يدور حولها في المشفى قصصٌ لحالاتٍ كثيرة تدهورت صحّتها أو زهقت روحها انتظارًا للتّحويلة الطّبية، وخاصّة تلك السّيدة التي جلست على باب الغرفة، والتي أوصاها ابنها أن لا تفتح الباب لأيّ كان، لقد سمعتها تجهش بالبكاء وتحدّث أحدهم عبر هاتفها المحمول، كانت تردّد عجزها أمام زوجها، الّذي غادر الحياة وهو ينتظر موافقة الجيش الإسرائيلي إعطاء تأشيرةٍ لفرصةٍ يبحث فيها عن الحياة، تأثّرت كثيرًا لوجع هذه السّيدة، وشعرت أنّها قد تفقد ابنها بالانتظار ذاته، وهي تقف هكذا عاجزة. مسكت هاتفها المحمول، وحاولت الاتّصال بوالدها، لكنّ شبكة الاتّصال لم تسعفها بذلك، مرةً تلو مرةٍ لم يفلح الأمر، لتصرف نظرها عن الحديث معه موكّلةً أمرها لله. هذه القوّة التي تظهرها وسيطرتها على نفسها انهارت أمام صرخات زوجة ابنها عزّ الدّين على خبر وفاة طفلها الكبير في حادث القصف، تضرب خدّها ووجهها بكفّ البكاء والعويل، حزنًا عليه وهي ما زالت لا تعرف أنّ زوجها يرقد في العناية

المركّـزة ينتظـره مصيـرٌ مجهـول. لـم تخفـض مـن هـول صراخهـا الـذي احتضنتــه أمّهــا إلّا حيــن حاولــت الخــروج لرؤيــة زوجهــا وابنتيهـا، فعلمـت حينهـا أنّهـا فقدت سـاقيها، لتعـود إلـى فراشـها فاقدة لوعيهـا.

خرجـت سـجى تبحـث عـن منفـذ هـواءٍ تنقـذ فيـه شـهيقها الـذي ضـاق فــي صدرهــا، وكان يــزن يمســك بيدهــا، ويصحبهــا خروجًــا مــن المشـفى، وسـط زحـامِ الإصابـات ورائحـةِ الدّمـاء.

الحـرب كافـرةٌ، لا تؤمـن بالصّرخـات التـي لا تتلوهـا آيـات الأمنيات، لا تدخـل ديـن الرّغبـات، وترفـض أن يكـون لهـا إلـهٌ مـن رحمـة الإنسـان.

أيـامٌ وأيـام مـن عذابـات الفقـد والألـم، وطوابيـر الانتظـار وهواجـس المـوت، وصخـب الطّائـرات. ازدحمـت محافظـة رفـح بالنّازحيـن مـن شـتّى المناطـق، وأصبحـت النّـاس فـي الشّـوارع، كأنّهـا حشـودٌ مـن ثـورة لا سـلطة لهـا لوقـف هـذا الزّحـف العسـكري نحـو القتـل والتّدميـر.

*الربيع لم يكن أصدق نبوءةً من الحرب

جاء الربيع جافًّا عابسًا، خلا من رائحة الياسمين ومن بياض الفل، خلا من تأمّل الأجواء الدّافئة بشمس النهار، الباردة ببسط الليل للسواد، ومن مشاهد البساتين التي إن نجت من القصف، اضطرّ السّكان لتحطيبها، وخلا من صوت ضحكات البنات الذّاهبات إلى المدرسة، وهنّ يزينّ الشّوارع بزيّ الجمال.

في الشّمال، تجاوز الدّمار المدى على ملمح بصر الحقيقة والاستيعاب، حاصروا المخيّمات مراتٍ ومرات، طردوا سكانها ودمّروا بيوتهم، أطلقوا الرّصاص فوق رؤوس النّاس، وصل ببعض السّكان النّزوح للمرّة العشرين وأكثر، ما بين اقتحام البيوت وتدميرها، وما بين الهروب خوفًا، وعودة للاطمئنان على البيت الذي يملك، أو الخيمة التي يملك، أو الإيواء الذي لا ملك فيه.

حاصروا الشّمال تجويعًا وقتلًا، يريدونه خاليًا من السّكان، حلّقت طائراتٌ فوق سماء الشّمال، وكان صوتها العالي المختلف عن صوت الطّائرات الحربيّة القريبة نسبيًا من الأرض، يجذب الأطفال بصرخاتهم خلفها، يستجدونها لقذف المساعدات.

لكنّ المظلّات تنحرف عن طريقها إن عاندتها الرياح، وأخفقت حسابات الطّيار التي تعلمّها، لم يتعامد السقوط على المساحات المؤهلة لذلك، فتحولت الصناديق لقنابل تنفجر فوق رؤوس الحشود الباحثة عن سدّ الاحتياج.

غـزّة التـي لـم يسـيطر عليهـا الاحتـلال فـي حـرب النّكبـة، والتـي قاومـت المسـتوطنات المزروعـة فـي وسـطها حتـى أخرجتهـا، مـن لـم يعـرف غـزّة، فليقـرأ تاريخهـا. هـي أوّل مدينـةٍ فـي فلسـطين، فتحهـا المسـلمون فـي عصـر الخلافـة الرّاشـدة، أصحـاب البشـرة السّمراء المستمدّة ملامحها من بحرها المتوسّط، أكثر من ثلاثة آلاف عـامٍ قبـل الميـلاد، منـذ نشـأتها زارهـا العـرب والإفرنـج والإغريـق والمـلّاق، زارهـا كلّ مـن عبـر التّجـارة، واسـتطعم البرتقـال والزيتـون علـى أرضهـا.

غـزّة التـي جمعـت الأديـان فـي المدينـة القديمـة، وتوحّـدت فـي الاسـتهداف الأخيـر، الـذي اسـتهدف مسـاجد وكنائـس.

للتاريـخ أعـداء يفخـون محطاتـه، ولكنهـم لا يسـتطيعون تفجيـر اسـتمرار تأريخـه.

لـم يسـتطع يـزن تـرك عـزّ الدّيـن وأسـرته فـي المشـفى، والذهـاب للعمـل فـي رفـح. بقـي هنـاك يتابـع حالتهـم، وكانـت الأمّ بيـن ذهـابٍ وإيـاب، وقـد اسـتطاع أحمـد أن يشـتري بعـض الأخشـاب والشّـوادر، حيـن حصـل علـى سـلفةٍ ماليّـة مـن راتبـه، ونـزل إلـى البحـر فأنشـأ خيمـةً هنـاك، لتكـون بـاب رزقٍ لـه، وتكـون بيتًـا يمنعـه الحـرج، خاصـةً فـي ظـروفٍ أصبحـت تغيـب فيهـا الأمّ ويـزن، ولكنّـه كان يذهـب صباحًـا لتأميـن مـا يحتاجونـه، ثـمّ يعـود ليقيـم فـي خيمتـه الصّغيـرة.

لـم تتمكّـن فلسـطين مـن زيـارة أخيهـا وأسـرته، وقـد أوضحـت لهـا الأمّ أنّ الأمـر ليـس هيّنًـا، فـلا داعـي للذّهـاب إلـى المشـفى، وتعريـض نفسـها لخطـر الطّريـق، اكتفـت بالتّواصـل يوميًـا مـع يـزن عبـر الهاتـف، تطمئـنّ علـى أخيهـا مـن خلالـه، وتحـدّث زوجتـه هنـاك، وكانـت تتوجّـه نحـو خيمـة عائلتهـا، وتسـاعدهم بمـا تسـتطيع. اسـتطاع أحمـد أن يمـلأ وقـت راجـي بالبيـع والشّـراء، حتـى يبعـده عـن فكـرة السّـفر التـي خدعـه بهـا مكتـب التواصـل، وأودع لديـه مبلغًـا مـن المـال، لكنّـه كان طريقًـا للنّصـب والاحتيـال، إذ لـم يعـد يجيـب علـى اتّصالاتـه، فتأكّـد أحمـد أنّـه تعـرّض للاحتيـال.

راجـي الشّـاب اليافـع الـذي كان يحلـم ببنـاء مدينـةٍ كاملـة، وخيالـه متعلـقٌ بالهندسـة المعماريّـة، لقـد تأثّـر نفسـيًا وفقـد شـغفه بـكلّ شـيء، بسـبب موقـفٍ كهـذا، وبسـبب مـا حـلّ ببلـده مـن دمـارٍ يحتـاج أعمـارًا ليعـود عمـارًا، لقـد اغتالـت الحـرب أحلام كل الشـباب الطالـب للحياة.

شـارف الرّبيـع علـى نهايتـه، وبـدأت الحـرارة تعلـو، لـم يكـن هنـاك فـارقٌ فـي الفصـول سـوى تـردّد صـوت الانفجـارات ونـزف الدّمـاء، ارتفـاعٌ وانخفـاض، فصـول الحـرب الخارجـة عـن طبيعـة الحيـاة، فصـل للنازحيـن فـي مـا تبقـى مـن مبـانٍ ومنشـآت، وفصـل فـي خيـامٍ تختلـف أجـواء الطبيعـة فيـه إن كانـت خيامًـا جاهـزة أو مصنوعـة من شـوادر وقمـاش، فصـل للخيـام المتاخمـة لسـاحل البحـر، يتقدمـون ويتأخـرون فـي أمتعتهـم مـدًّا وجـزرًا، وفصـل لمـن نصبـت خيـام

نزوحهم على الرمال وعلى الطين، لتتجاذب فصول معيشتهم في فصل واحد، حتى الملابس والأغطية لم تعد مناسبة لفصول الطبيعة، بل لفصول النزوح وما سمحت لهم الحرب بحمله من أمتعة وملابس.

أخيرًا وصلت الموافقة من الجانب الإسرائيلي على التّحويلة الطّبية، ذهبت الأمّ سجى لبيع سوارٍ من ذهبٍ؛ لتساعد ابنها في مصاريف العلاج والسّفر، وكانت الفرصة متاحةً أمام راجي الذي أرسل يزن اسمه ليكون مرافقًا مع أسرته، وقد أخفت الأمّ عنه ذلك حال معرفتها؛ خوفًا من أن يتركها ويرحل بعيدًا عن قلبها، إلّا أنّ يزن وأحمد استطاعا إقناعها بأنّ مستقبله التّعليمي أهمّ بكثير من خوفها من البعد وحنينها إليه، وأنّه الوحيد الخالي من مسؤوليات الأسرة، ولا بديل عنه لمساعدة عزّ الدين وأسرته، فوافقت أخيرًا على ذلك.
اليوم التّالي كان للوداع عبر معبر رفح، انطلق الإسعاف وفيه أسرة عزّ الدّين إلى القاهرة، ومن الصّدف المتضادّة أن يكون الوداع مصاحبًا للقاءٍ آخر.

ورد اتصالٌ على هاتف زوج فلسطين، أحد الجيران في المنطقة يخبره أنّ والد زوجته بجواره منهكٌ، وقد تاه عن عنوان البيت، أسمع الزّوج البشرى لزوجته، فأخبرته أن يذهب إليه سريعًا، ويصحبه إلى بيتها، وهي ستتّصل بعائلتها وتبشّرهم بذلك.

حاولت الاتصال كثيرًا بأمّها، لكن لم يفلح الأمر، وحين جرّبت الاتّصال على هاتف ليان نجحت في ذلك، وأخبرتها أنّ والدها قد أفرج عنه وأنّه في بيتها.
طارت ليان من الفرحة، وأخبرتهم جميعًا فعادوا من وداعٍ حنين إلى لقاءٍ حميم.
تداركت الأمّ أنّه من الصّعب الذهاب إلى بيت فلسطين، فطلبت منها أن يبقى في بيتها، حتّى يصل إليه يزن، ويأخذه معه إلى الخيمة.
اتّصلت فلسطين بعدها بهاتف يزن، وطلبت منه أن يأتيها بشفرة حلاقة، وملابس داخليّة وحذاء، فضحك لما طلبت منه قائلًا: أنت هنا معنا في هذ الحرب؟ لقد خلا السّوق من هذه الأشياء منذ فترةٍ طويلة، حتّى النّعال لم تعد موجودة.

في منتصف اللّيل استدعت إدارة السّجن مجموعةً من السجناء، كان من بينهم عبد الرّحمن، وساقتهم إلى عربة شحنٍ بعد أن عصبت أعينهم، ثمّ سارت بهم لساعاتٍ طويلة، ثمّ نزلوا بهم لمكان يشبه السّجن، غرفة كبيرة بلا نوافذ، وأخبروهم أنّهم سيرتاحون بها قليلًا، حاول عبد الرحمن الاستفسار بالعبريّة، فأجابهم أحدهم بالعربية، سنفرج عنكم.
لم يقصد زرع الفرح في قلوبهم، بل قصد أن لا يناموا وهم يفكّرون بفرحة الإفراج عنهم، ولقاء الأهل، حتّى حضر أحدهم بوجبة إفطار، فسألوه عن ملابسهم التي من المفترض أنّها دخلت

الأمانـات عندهـم، فهـم الآن حفـاة، لكنّـه لـم يجبهـم، وبعـد سـاعتين مـن إفطارهـم، سـاقهم جنـدي آخـر إلـى حافلـة متوسـطة الحجـم معصوبـي الأعيـن، وبعـد فتـرة مـن الزّمـن وقـد قاربـت الشّـمس علـى عموديتهـا، توقفـت الحافلـة وأنزلهـم الجنـدي وقـال لهـم: هيّـا إلـى الجحيـم مشـيرًا إلـى غـزّة.

حيـن هبـط الجميـع مـن الحافلـة ورفعـوا العصبـات عـن أعينهـم تفاجـأوا بوجـود فتيـات فلسـطينيات مفـرج عنهـنّ، كانـوا أربعـة عشـر رجـلًا، وسـتّ فتيـات.

لقـد تركهـم المحتـل علـى معبـر «كـرم أبـو سـالم» حفـاةً بـلا نقـود، بملابسـهم التـي لـم يغيّروهـا منـذ تـمّ اعتقالهـم، وبـلا هواتـف، قطعـوا الطّريـق مشـيًا علـى الأقـدام، مـن بيـن الدّبابـات التـي أشـارت إليهـم التوجّـه نحـو رفـح علـى الرّغـم أنّهـم يختلفـون فـي مواقـع السّـكن.

وصلـوا إلـى محطـة انتظـار أقامهـا الصليـب الأحمـر لاسـتقبالهم. أخـذ بياناتهـم وسـجّل مقتنياتهـم التـي صـودرت منهـم لمطالبـة المحتـل بإرجاعهـا.

عـاد أحمـد مـع سـجى وليـان، وهـو يعلـم مـاذا تريـد، فقـد فتّـش السّـوق كلّـه عـن الخضـار الـذي تحتاجـه أكلـة المقلوبـة حتّـى وجـده، وعلـى الرّغـم مـن عـدم وجـود اللحـوم والدّجـاج فإنّهـا طهتهـا؛ لأنّ زوجهـا يحبّهـا كثيـرًا. سـاعدت علياء فـي تنظيـف الخيمـة وترتيـب الأغـراض، ورتّبـت ليـان المسـاحة التـي يشـعلون فيهـا النّـار وتهيؤوا جميعًـا للّقـاء.

«أين أنت يا أحمد؟»

«على البحر يا ليان»

«هل أنت منشغلٌ أم أتّصل بك؟»

اتّصل بها أحمد مستغربًا وقال: «أعتقد أنّك منشغلة باستقبال والدك»

"نعم، أنهينا كلّ شيء في انتظار مجيئه، ولكن أحبّ أن تكون معنا في هذه اللّحظة، لقد اعتدنا وجودك في كلّ الظّروف، ومنها تتعرّف على والدي».

«سأتعرّف عليه قريبًا، حين يرتاح بين أفراد أسرته، أخبريني كيف هي أمّك؟»

«لا يبدو على وجهها الفرح أو الحزن، إنّها هادئة كالبحر حين يبدو دون مدٍّ أو جزر، لا أستطيع قراءتها جيّدًا، لم تخبرني عن زوجتك أنت!».

«فاطمة! ما بها؟»

«هل تزوّجتها عن حب؟»

«لقد تعرّفت عليها في الجامعة، كانت تراقبني أينما أتحرّك، كما كانت تفعل الكثيرات».

قالت ليان ضاحكةً: «هل كنت شاعرًا وقتها، حتّى كانت تتبعك المعجبات؟»

- كنت الفلسطيني الوحيد في جامعة وسط العاصمة الجزائرية، وأنت تعلمين كيف يحبّنا الشّعب الجزائري، كانت تختلف كثيرًا عن الجميع، رقيقةً، ناعمة، لا تتحدّث كثيرًا، تبدو لي دائمًا حزينة، عكسي تمامًا، ذلك الوقت كنت كثير الكلام والمرح، نشيطًا جدًا حتّى أنّي كنت عضوًا في مجلس الطّلبة، أبحث في شؤونهم واحتياجاتهم"

صمت قليلًا، فشعرت ليان بغصّة قلبه، فلم تطل الحديث معه عنها، وقالت له: «صحيح كي لا أنسى، أمّك سجى، أخبرتني أن أدعوك إلى وجبة العشاء فلا تتأخر».

جلس أحمد يعيد مع موج البحر ذكرياته، يخطّئ نفسه كيف به ألّا يتّصل بأهلها في الجزائر، ويعزيهم بوفاة ابنتهم، لا يملك هاتفًا حديثًا، ولا يملك كلمة السّر التي يدخل بها لحسابه على الفيس بوك، وقد لا يملك الجرأة والقدرة على مواجهتهم، متيقنًا بأنّهم قد علموا باستشهادها، فقد صوّرت قناة الجزيرة حدث ضرب المنطقة، وأعلنت أنّه النّاجي الوحيد، وحاولت أن تغطّي الخبر معه وقتها، ولكنّه لم يتجاوب معهم.

تغيّر شكل عبد الرحمن كثيرًا، عاد يعرج على قدمه اليسرى، وبدا وجهه أكثر تجعيدًا، فلا يظهر عمره الحقيقي، لقد جاءت الحرب لتضيف سنواتٍ من العمر، والهمّ والوجعِ إلى ملامح الغزّيين.

تنظـر لـه سـجى نظـرة حنيـن، ولا تهتـمّ لأيّ شـيء، فقـد عـادت الـرّوح لجسدها، وامتـلأ القلـب بمـاء النّبـض مرتويًـا، لا مـكان اليـوم للهزيمـة، ولـن تعـود سـيغال للنّـدم.

عشـاءٌ علـى صفيحٍ سـاخن، علـى الرّغـم مـن سـعادة الأسـرة بوجـود عبـد الرّحمـن، وترحيبـه بأحمـد مسـتكملًا مـا بدأتـه زوجتـه، قائـلًا أنـت ابنـي أيضًـا، ولا أريـد أيّ شـيء أن يتغيّـر بسـبب وجـودي، إلّا أن أصبـح والـدك هنـا معـك أيضًـا، لكـن أنبـاء انهيـار الهدنـة وإعـلان الجيـش الإسـرائيلي اجتيـاح رفـح، ومـا قالـه ناجـي مـن أنّ عـزّ الدّيـن دخـل غرفـة العمليّـات، وأنهـم فـي انتظـار النّتيجـة بعـد سـاعات، أفسـد فرحتهـم.

مليـون ونصـف مواطـن فـي محافظـة رفـح، أكثـر مـن ثلثـي سـكّان قطـاع غـزّة فـي محافظـة واحـدة، والمحتـل يريـد اجتياحهـا علـى الرّغـم مـن تحذيـر المجتمـع الدّولـي مـن هـذه العمليّـة. الخيـام الملاصقـة للحـدود مـع جمهوريـة مصـر العربيّـة، ليسـت صدفـة، لقـد لجـأ إليهـا النّـاس اعتقـادًا منهـم أنّ التصـاق أجسـادهم بـأرض الفراعنـة، قـد يطـرد عنهـم لعنـة المـوت.

لا خصوصيّـة فـي الخيـام، كان حديـث الزّوجيـن خافتًـا جـدًّا، علـى الرّغـم مـن أنّ ليـان وعليـاء وابنهـا تركـوا لهمـا المـكان، وانتقلـوا إلـى مـكان مجـاور أنشـأه أحمـد، أمـا هـو فذهـب إلـى خيمتـه التـي صنعهـا علـى البحـر.

سألت سجى زوجها، «هل قصّرت حين تردّدت ثم امتنعت عن الاستعانة بوالدي، أو بأحدٍ من معارفي في الحكومة الإسرائيليّة للبحث والإفراج عنك؟»
عدّل في جلسته واقترب منها، لكنها لم تنتظر جوابه سألته مرة أخرى
«هل أخطأت عندما لم أستعن بهم من أجل الموافقة الأمنيّة على تصريح خروج عز الدين للعلاج؟»

أمسك يدها ونظر في عينها وهو يحاول أن يردّ دمعةً تنتظر جوابه؛ كي تسيل على خدها، وقال:
«لقد عرض السجّان مقابل الإفراج عني أن أقنعك بالتعاون معهم، لكنّني رفضت ذلك، وأخبرتهم أن سيغال التي تعرفونها أصبحت سجى، وهي اليوم أمٌّ لأبناءٍ فلسطينيين. أيّ طلب ستقومين بطلبه منهم سيقابله ثمن باهظ ندفعه لهم».
ارتاح ضميرها بما أثبته لها زوجها، وازدادت ثباتًا وراحةً حين وصل خبر خروج عزّ الدّين من العمليات، ونجاح استخراج الشّظية منه، لكنهم جميعًا في انتظار مرور أربع وعشرين ساعة ليعلموا أنه جاوز مرحلة الخطر.

كلّ شيء في الحرب مختلف، وكلّ الحروب عن حرب غزة مختلفة...

في فلسطين يوجد شعب يملك الأرض أصله كنعان، وشعب مستضاف كان تائهًا في أصقاع العالم وعاد بوعد، لو نظرنا إليهم من الدّاخل وجزّأنا العمر الذي عاشا فيه، لوجدنا أنّهما يتشابهان في القدرة على التّكيّف والتناغم، وقد فعلوا ذلك لسنواتٍ عدّة، فقد عاشوا معًا في أراضي ٤٨ المحتلّة، وما زالوا متعايشين، وقد تعايش هناك أيضًا العمال الفلسطينيون من الضفة وغزّة مع الشّعب الإسرائيلي في العمل والمأكل والمشرب، حتى أنّ بعض اليهود عوقبوا بعد أحداث السابع من أكتوبر؛ لأنّهم آمنوا بإنسانية هؤلاء العمال، واحتفظوا ببعض منهم في بيوتهم فترة اعتبارهم مطلوبين لدى أجهزة الأمن الإسرائيلية، حتى التّشدد الدّيني وما يسمونه تطرفًا مزروعًا في كلا الشّعبين.

غزّة مختلفة، لأنّهم أرادوها كذلك، عزلوها عن العالم لعمرٍ طويل، وحاصروها وهاجموا مقدّراتها، وأطلقوا عنان الحروب على أحلامها، بين الحين والحين يقلبون أرض الحياة فيها، ويخرّبون مخططات العقل والقلب، والآن يسمّون التّشدد تطرّفًا، والصّمود بلادة، والدّفاع عن النّفس عنفًا.

وذلك لأنّهم أدخلوا لعبة السّياسة إليها، وجعلوها ملعبًا لكلّ من يريد تسجيل هدفٍ تفوز به دولته، وتركوا لها جمهورًا يصفّق ويهتف، ولا يقدّم مستقبلًا لحياة الساكنين فيها.

في الخيام كلّ اللّغات المجتمعية، كلّ العادات، خليطٌ من المعتقدات لا تفصل بينها جدران التنشئة، تتعارك في بطن الازدحام، يطفو على سطحها التّماسك والتّعاون والقيم، التي نشأ عليها الكبار، وأخبروا عنها الصّغار.

أين الكبار من الصّغار؟! وصغار الأفعال تنتشر كالنّار في الهشيم، حين يصطدم الجار بجاره من أجل شربة ماء، وحين تمزّق المرأة بلسانها من كانت تخبز لها بالأمس، وحين يصبّ السّائق زيت غضبه في وجه المارّة، وحين يطلق مسلّح النار في وجوه الناس وعلى أقدامهم، وحين أصبح الأخ عدوًّا لأخيه، والابن لا ينفع أمّه وأباه.

كثيرٌ من السّلوكيّات تغيّرت، والمعتقدات تبدّلت، بل إنّ بعضهم فقد معتقداته؛ لأنّه آمن أنّ هذه الحرب لا تريد له البقاء على قيد الحياة، همّه الوحيد هو البقاء على قيد العيش، مهما كلّفه ذلك من ثمن وخسر من إنسان.

عرفت سجى بين كل هذا الاختلاف، وهذه التناقضات السلوكية، والتغيرات المجتمعية أن تكون مختلفة أيضًا في ردة فعلها، وخاصة عند الخوف، حين دخل أحد الأشخاص إلى خيمتها، وقد غرق الجميع في سباتهم، شعرت هي بحركة دخوله، وشقت نافذة من عينها ترقبه، ولم تجرؤ على إيقاظ زوجها. تركته يتحرك مع الهواء الساكن بخفة، مستفيدًا من أرضية الخيام التي تمتص الأصوات برملها، لقد كانت وجهته جرّة الغاز، تركته

يأخذ ما يريد وكانت حريصة على ألا يشعر هذا اللص بخوفها ويقظتها، فهي لا تضمن ردة فعله نحو أي أحد من أفراد أسرتها إذا اضطرب.

بعدما رحل من المكان بصمت، عادت هي وغرقت نومًا في حضن زوجها، الذي لم يشعر إلّا بأمن حبه لها واطمئنانه معها. أيّ امرأة هذه؟! فلاحة، قوية، جسورة، تحمل المنجل وتحسن ضرب أعناق السنابل تحت أعين الشمس، أم مدنيّة، رشيقة، أنيقة تعتلي الطرقات بخصلة شعرها وتتزين فوق أرصفة المدينة. إنها الفتاة التي نشأت في العالم الأكثر تطورًا وخالطت العمال في مطلع شبابها، اكتسبت الخبرة والعمل من والدها الذي شاركته إدارة المصنع، تعتمد على نفسها وتطور من قدراتها، هي الفتاة ذاتها التي تحدّت دولتها ودينها وعائلتها من أجل عامل فلسطيني، لتثبت للعالم أجمع أنّها امرأة الحياة، تحمل منجلًا في وجه الشمس وتضع عطرًا لأرصفة أحلامها.

الكتابة في الحرب تشبه سلخ الجلد عن الجسد، يصعب على الكاتب الذي يعيش كلّ هذا الخوف المستمر، والإشكاليّات المتزايدة في الحصول على الأولويّات والاحتياجات أن يسوق فكرةً نضجت في مخيّلته، وقد أصبحت مثل حبّة الفاكهة «الفلورا»، تمتد بسيقانها حول الجدران تسلقًا، وتقطفها لتأكلها وتشعر بعد كل قضمه بطعمٍ مختلف، لا تعرف إن كنت تؤدّي هدفًا أو تتلذذ بما تكتب، تكتب وتحذف، ثم تكتب ولا ترضى، ثم تكتب لعلك ترضى.

في زحام أفكار البحث عن شيءٍ في عواصف الأشياء، نعتصر ذهن التّأمل، ويبقى الخيال مأسورًا في فضاءٍ حاصرته الطّائرات، وأحاطه المجهول حول شتّى منافع الحياة.

أذكر أنّني كنت أسير نحو سوق على رصيف طريقٍ واسعٍ ذي اتّجاهين، رأيت طفلتين تقفان أمام نظري على الرّصيف، وكانتا متطابقتين في الطّول وربطة الشّعر، ويبدو على ملامحهما الشّبه، كأنّهما أختان، تمهّلت في المشي قليلًا، وتركت الفضول يركض إليهما، أتأمّل استعدادهما، وكأنّهما في انتظار طلقة الانطلاق، متأرجحتان تارةً نحو الطّريق وتارةً نحو الرّجوع إلى الرّصيف، ثمّ كانت العدّة ثلاث، ركضتا مغلقتي العينين في تحدٍّ صعب للّعبة، أسميتها وقت أصابتني الدّهشة لعبة الموت، الطّريق لا يخلو من حركةٍ لكثير من السّيارات المسرعة، وكان الاستعداد لخوض سباقٍ ذهابًا وإيابًا بقطع طريقٍ ذي اتّجاهين، لم أصح من الصّدمة حتّى دخلت في صدمةٍ أخرى حين عادت الفتاتان بسلام، وقد عطّلتا السّير وثارت عليهما حفائظ السّائقين والرّكاب. صدمت حين سمعت تصفيق الأمّهات اللاتي جلسن على الرّصيف ذاته، يراقبن هذا التّحدي دون اكتراثٍ لحياة بناتهنّ.

كأنّ هذه الحرب قتلت ما قتلت من أطفال، وما بقي من طفولةٍ أمسى يتدرّب على الموت.

هكذا كنت أدوّن هذه المشاهد ويوميّات الحرب على هاتفي، في كلّ زاوية من زوايا الحياة التي أشارك العيش فيها، لم أكن أفكّر وقتها بكتابة رواية، هذه اللّوحة الفنّية الأدبيّة التي تحتاج منّا لكثير من الهدوء والاسترخاء؛ لنستطيع رصف الكلمات ورسم الصّور.

ولكني حين وصلت إلى وسط الزّحام، وأنا أكتب على هاتفي اللّمسة الأخيرة لقصّة لعبة الموت، تلقّى المبنى المجاور للسّوق ضربةً قويّة من طائرات الاحتلال، هزّت أسفل أقدامنا، حنيت ظهري ووضعت يدي على رأسي وسقطت أمامي من تدافع أمواج النّازحين الذي يحتوي المد والجزر يوميًّا في هذا المكان. أمسك أحدهم بيدي وسحبني بأعجوبة، عرفت أنّه صديقي، لكن أخذت أنفض نفسي وأفتّش حولي عن الهاتف الذي لم يعد بيدي، حاولت جاهدًا أن أبعد النّاس عن مكان سقوطي وبحثنا معًا، لكن بغير طائل.

حاول صديقي الاتّصال بالهاتف، فسمعنا أسطوانة الإغلاق، بدا يتسلّل إليّ شعورٌ بأنّ الهاتف قد سرق، فلا أثر له، ولا لأجزاء منه في محيط مكان سقوطي.
المصيبة الكبرى في يوميّات الحرب التي كنت أدوّنها على الهاتف، كنت غاضبًا جدًّا بعد ما يقارب المائة يوم من التّوثيق والكتابة، أهكذا يضيع كلّ شيء؟!

أخذني صديقي وجلسنا في مكانٍ أقل فوضى من السّوق، وحاول تهدئتي وإقناعي بأنّني كاتب، وأستطيع كتابة ما ضاع منّي، وهو لا يعلم أنّ الكتابة الأولى لها نكهة الإبداع الحقيقي.
لكنّني فكّرت بكلامه، فقد ذكّرني لقائي به بروايةٍ كتبتها قبل الحرب، ولكنّي لم أنشرها بعد، وكان له الفضل في الإيحاء بكتابتها، إذ ساق إليّ قصّة أسرةٍ تقطن بجوار أسرته، عاملٌ فلسطيني تزوّج فتاةً يهوديّة وأنجبوا أولادًا، وكانت الحياة مليئةً بالمشاكل والتّحديات. أذكر أنّ فضول معرفتي أكثر عن حيثيّات هذا الحب الذي جمعهما، وما واجه هذا الزّواج من تحدّيات، حملني لزيارة هذه الأسرة ومقابلة «سيغال» شخصيًّا.
لقد سألته عن مصير الأسرة قبل أن ينصرف، فنفى علمه بأيّ شيءٍ عنها، فقد رحلت الأسرة عن جيرته منذ سنواتٍ عدّة، تخيلت كيف تعيش هذه الأمّ التي كانت يهوديّة تحت ضربات ما زالت أصولها تمتدّ منها.

وقتها، بقيت جالسًا مكاني أشعر ببعض وجع الكدمات في قدمي من أثر السّقوط، وبعض الارتجاجات في رأسي، والتي سبّبها تصارع الأفكار في ذهني، وكيف يمكن أن أنسج من روايتي تلك روايةً جديدة، قد يكون لها الفرصة للطّباعة، وأتحدّث فيها عن هذه الحرب، التي شعرت للحظةٍ أنّها يمكن أن تقتل الكاتب والمكتوب في قنبلةٍ واحدة.

إذا رأيت أنياب الموت بارزةً فلا تظنّنّ أنّ الأجل يبتسم

ألقى العدوّ بعصيّه يخيف بها الآمنين، وأسقط من القنابل على معبر رفح ما جعلهم يتركون توقّعهم بأنّ مكوثهم قرب الحدود المصرية سيكون أكثر أمنًا.

وصلت رسائل صوتيّةٌ لهواتف كثيرة من سكّان خان يونس النّازحين إلى رفح، فحواها أنّه يمكنهم العودة إلى ديارهم في خان يونس. رفح التي استقبلت مليونًا ونصف مليون نازح في بيوتها وأراضيها وشوارعها وأحيائها ومدارسها، وقدّمت لهم كلّ ما تستطيع من منافع الحياة، سيخرج أهلها الآن من بيوتهم.
لا يعرف النّازح في بيوتهم، أيحزن على نفسه أم على المستضيف؟ أهكذا يكون جزاء الذي اقتسم بيته وفراشه وماله ووقته وخوفه وتفاصيل كثيرةٍ شاركوها معًا؟
تحدّث عبد الرّحمن مع أحمد ويزن من أجل الاستعداد للعودة إلى بيتهم المهدّم، ليحاولوا استصلاح ما يصلح، وبناء خيمتهم. لم يكن سهلًا أبدًا الحصول على شاحنة للنّقل، ولكن استطاع أحمد أن يتّفق مع أحد سائقي الشّاحنات أن يأتيه فجر اليوم التّالي.

استمروا بترتيب أغراضهم وحزم أمتعتهم حتى وقت متأخر من اللّيل، وقبل الفجر رفعوا الخيمة ونقلوا الأغراض، وتحرّكت الشّاحنة مع شروق الشّمس. لم يبق بيتٌ لم يصبه ضرر، لا

مدرسة، ولا مشفى، ولا مراكز، ولا مساجد، حتى القلعة التاريخية والنصب التذكاري دمروه، خربوا القبور، وقصفوا الآبار، لم يتركوا سوى الرّكام، وأغلقوا الطرق بالبيوت المهدمة، فأين تنصب الخيام؟

وصلت أسرة عبد الرّحمن إلى البيت، أين البيت؟ ليس كما كان على دماره وقت الهدنة، ليس كما وصفته سجى لزوجها ببعض الجدران القائمة، والأشجار المقتلعة من جذورها، لقد كان ممسوحًا عن الأرض، مجرّفًا من البقايا التي قد تحفظ لهم بعض الذّكريات، لقد مسح ذلك المحتل ما بقي من البيوت في مناطق كثيرةٍ، واستغلّ الرّكام لأغراضٍ عسكريّة.

ابتسم عبد الرّحمن وقال: «تركوا لنا مساحةً لنصب خيمة».

استطاع عزّ الدّين أن يستعيد وعيه بعد يومين، فقد نجحت عمليّته وعاد إلى الحياة، ولكنّه ما زال يصارع حزنه على وفاة ابنه، وإصابة زوجته.

التحق راجي بالدّراسة في برنامج دراسي أعدّته السّفارة الفلسطينية في مصر للفلسطينيين الذين سافروا في الحرب، حتى لا يضيع العام الدّراسي. كان يتواصل مع والدته حسب الفرصة المتاحة للشّبكة في رفح، وقد انقطع الاتّصال أيامًا عدّة بسبب تدمير المحتل لكلّ شبكات الاتّصال في خان يونس. اضطرّ يزن للبقاء مع عائلته، وخاصّة مع زوجته التي بدأت تتعب كثيرًا

مـن حملهـا، وتشـعر أنّهـا علـى وشـك الـولادة، علـى الرغـم مـن أنّ شـهرها الثّامـن لـم يكتمـل.
نصـب أحمـد خيمتـه التـي أقامهـا علـى البحـر، وكان يتاجـر منهـا بجـوار خيمـة الأسـرة بنـاءً علـى طلـب الوالـد والوالـدة.

أنحـبّ مـرةً... ومـرةً أخـرى؟! يقولـون إنّ قلـب الرّجـل يتّسـع لحـبّ أكثـر مـن امـرأة واحـدة، هـل بنـوا ذلـك علـى مـا شـرّعه الإسـلام فـي زواج الرّجـل أربـع نسـاء؟ أم هـل الديانـات الأخـرى أثـارت العـدد فـي حـب الرجـال للنسـاء؟!

الحـب ديـنٌ آخـر لا أركان أساسـية فيـه، نؤمـن بـه ونصـدّق لمجـرّد أننـا نتتبـع نبضـات القلـب، ومهمـا عشـق الرجـل مـن نسـاء تبقـى سـيدة الحـب الأولـى هـي كليوباتـرا المشـاعر فـي قلـب المحـب.
المـرأة بوهـج مشـاعرها وذروة احتياجـات أنوثتهـا وطبعهـا الجسـدي المنسـاب شـغفًا للحيـاة، تسـتطيع أن تبقـى وردةً دون سـقيا، تقبـل بـأن لا تتفتّـح عمـرًا فـي غيـاب سـاقيها، لا يسـتطيع الرّجـل فعـل ذلـك، لأنّـه يحتـاج لأنثـى تلطّـف عليـه صعوبـات الحيـاة.
الفـراغ القاتـل الـذي يعيشـه أحمـد مـن فقدٍ وذاكـرةٍ معطوبـة، يحتـاج لحضـنٍ أكبـر مـن اهتمـام، لا يمكـن أن يكـون اهتمـام أسـرة عبـد الرحمـن التـي غمرتـه بالحـب والصّـدق كافيًـا. حيـن توالـت لقاءاتـه بليـان امتـدّت حلقـة الوصـل إلـى ذاكـرة قلبـه، إلـى شـغف حنينـه لمجدليّـة قلبـه، التـي كلّمـا جثـا علـى ركبتـي خوفـه رأى صورتهـا تبتسـم وهـي تحمـل وجـه ابنهمـا الصّغيـر.

حديث المشاعر الخاص بنجمات اللّيل السّاطعة صيفًا، يخترق فؤاده باحثًا عن اتّساع أفق في نبضٍ يلتهم ذكرياته الحزينة، وينير باحات وردٍ، وابتسامة أملٍ قد يجدها مع ليان التي لم تعد تخفي مشاعر حبّها له.

هبة زوجة عزّ الدّين تنام وتصحو ليلًا تتفقّد ساقيها، تبكي وتحزن لفقدها لابنها، هكذا مصيبةٌ تكون صبرًا لها على تلك الكارثة، وأحيانًا تكون الكارثة أهون من المصيبة، كالبتر الذي سيعيش معها أبد الحياة، قد تتمنّى كارثة الموت عن البقاء بهذه المصيبة.
لا أحد يعلم أين يكون الخير، ولكنّها الأقدار تختارها المشيئة، ونحن نصنع الأفعال بإرادتنا. لم يكن سهلًا على عزّ الدّين الذي نجا بأعجوبةٍ وعاد حيًّا بعد أن يئسوا من حالته واعتبروه في عداد الموتى، أن يتعايش مع فقدانه لابنه البكر، وإعاقة زوجته، لكنّه يستمرّ من أجل ابنتيه الصّغيرتين.
الحياة تأخذ وتعطي، والأقدار تقتل وتحيي، والإنسان يقع بين العطاء والأخذ، والحياة والموت.
لقد تعرّفت هبة على جارتها في الغرفة، التي بدأت تستعيد صحّتها وذاكرتها بعد وقت طويل، وقد أخبرتها كي تهون عليها حزنها ودمع حسرتها أنّها فقدت كلّ عائلتها في غزة، ولا تعرف شيئًا عن زوجها، فهو الوحيد الذي لم يكن في البيت وقتها.

الحرب مفاجآت على الأرض، ورحلة الألغام المجتمعية.

في ليلة عشاء اكتمل فيها البدر المطل على شرفة جناح المرضى، اجتمع عزّ الدين بزوجته وبناته، وكان راجي معهم يحاول إقناع الحزن بأنّ الحياة على الرغم من وجع الفقد مستمرّة. روت هبة قصة المريضة المجاورة لها في الغرفة، وكانت المفاجأة الكبرى حين ذكرت اسمها.

قال راجي بدهشة: «ماذا؟! اسمها فاطمة، أخبريني اسم زوجها يا هبة»

«إنّ اسمه أحمد».

«هل هي جزائرية الأصل؟»

«نعم، قالت ذلك»

نظر في وجه عزّ الدين الذي توقف عن الأكل مراقبًا دهشة راجي، الذي أخبره أنها زوجة أحمد صديقنا الذي اعتقد أن عائلته كلّها رحلت ولم يبق منها أحد.

الحرب قد تعطينا أيضًا، ولكنّها تعطينا ما يشبه الموت، أخبارًا لا نعرف كيف يمكن أن يتداولها النّاس، كيف يمكن أن تخبر الميّت أنّه حي؟ كيف يمكن أن نفرح باكين على أطلال الأمس؟ وكيف نجمع دجلة الذكريات وفرات التمني وبرزخ الحرب ما زال قائمًا؟

على الواتس كانت تتحدّث هبة مع ليان تطمئنّ عليهم، وبالوقت ذاته تريد سماع قصّة فاطمة منها، بعدما أخبرها راجي بالأمر، لتتأكّد أنّ من بجانبها هي زوجة أحمد حقًّا. ولأنّ التّفاصيل كانت مع ليان، ثبت أنّها زوجته التي طارت من علّو بيتها إلى مسافةٍ بعيدة، فوق دمار بيتٍ آخر، وقد عثروا عليها بعد يومين مغمًى عليها، ومصابة بجروحٍ سطحيّة، ولم يكن سكّان المنطقة موجودين للتّعرف عليها، فنقلت سريعًا إلى المشفى، وبعد فترةٍ من خلال صورتها تعرّفوا على هويّتها، واسمها من السّجل المدني، وعلموا أنّ عائلة زوجها توفوا جميعًا، وأنّ عائلتها في الجزائر، فتبنّى قضيّتها الصّليب الأحمر، وراسل الاحتلال؛ لينسّق لها الخروج للعلاج، لأنّها ما زالت في غيبوبة، ولم يعرف الأطبّاء سبب فقدان الوعي، ورجّحوا أنّها بحاجة لتشخيصٍ في غير مشفى.

لم تصدّق ليان ذلك، ولكن زوجة عزّ الدين أكّدت لها ذلك من خلال الهاتف الذي تحمله فاطمة، والذي استرجعت بعض الصّور لها ولأسرتها من خلال صفحتها على الفيس بوك، وقد تعرّفوا على أحمد في الصّور.

بدأت ليان تتوتر، تتساءل بينها وبين مشاعرها، تروح وتجيء في مكانها. اختنقت من ضيق المساحة، وخرجت إلى الشوارع الممتلئة بالحجارة تشعر أنّها تنتقل من ركام داخلي إلى ركام خارجي، لا مكان حتى للصراخ وجعًا، للتأمل نجاة، حتى القهر لا يمكن أن نجد له مكانًا لنعبّر عنه بسلام.

كيف لهذا القدر أن يضعها في دربين متتاليين كلاهما نهايته واحدة: الفراق؟

قد يكون من حسن حظي أني نزحت للمرّة الثانية، لا تعرف وقتها كيف تكون المشاعر، وكيف تعجّ أفكارك بكثير من أطياف الغموض، ما زلت أراقب سلوكيّات النّاس بحيرةٍ كبيرة، اشتدّت حرارة الجو قبل بدأ الصّيف، وقد أغرق المحتل دير البلح بالبضائع كي يغري النّاس في الجنوب بالنّزوح إليها، أنا بالذّات حين علمت أنّ كلّ أنواع القهوة دخلت إلى دير البلح، تحركت نحوها، ورأيت كيف يكون السّوق الخالي من البضائع، وكيف يكون السّوق الذي يفيض بها، وأنّ كليهما يغيّر سلوكنا إلى ما لا نعرف عن أنفسنا.

من شدّة الحر، اشتريت كأس برّاد لا يوجد عليه «شاليمو»، وكنت أسأل: لماذا الكأس البلاستيك متوفّر «والشاليمو» غير متوفّر؟ لا أجد جوابًا أكثر من التّساؤلات، ومنها لماذا تدخل الأجبان مثلًا، ولا تدخل المنظّفات، تعبر أشياء ولا تعبر أخرى، فأرى أنّها العصا والجزرة، وأرى أنّها سياسة الإلهاء.

حين فرغت من كأس البرّاد، بقيت في يدي كالمعتاد، حتى أجد حاوية قمامة ألقيها فيها، وقفت للحظةٍ أفكّر، ولكن أليس من باب أولى أن أضعها بجانب الطّريق، فيستفيد منها أحدٌ

فـي إعـادة اسـتخدامها حتـى لـو فـي إشـعال النّـار؟ ولكـن إن فعلـت ذلـك ألـم أغيّـر سـلوكًا صائبًـا؟ وهـل كانـت الحـرب إلّا أن تتلـف الحيـاة، وتغيّـر سـلوكًا لـم يكـن لنـا؟ هكـذا أصبـح الحـال، صـراع فـي السـلوك، فـي القـرار، فـي التأمـل، حـربٌ كبيـرةٌ فـي فهـم الأمـور.

الصّـراخ للحيـاة وللفقـد، والـولادة مـن خاصـرة الـروح لا مخـاض لهـا

علـى الرّغـم مـن صـوت القنابـل فـي شـرق خـان يونـس، فـإن وسـط المدينـة وغربهـا يبـدوان هادئيـن إلّا مـن طائـرات الاسـتطلاع. كانـت عليـاء تصـرخ مـن ألـم المخـاض، بقيـت الأمّ سـجى وليـان معهـا طيلـة الوقـت المتأخّـر مـن اللّيـل، وعبـد الرحمـن مـع يـزن يبحثـان عـن وسـيلة نقـلٍ فـي هـذا التّوقيـت الصّعـب.

المشـكلة أنّ المستشـفى المقـام فـي خـان يونـس خـرج عـن الخدمة بعد اجتيـاح البلـدة، ويحتـاج للكثيـر مـن أجـل العـودة للعمـل، والمرضـى يذهبـون إلـى ديـر البلـح مـن أجـل الـولادة والعمليّـات الصّعبـة.

حـاول أن يتّصـل بالإسـعافات لكنّهـا منشـغلة بنقـل المصابيـن فـي الأحـداث الدّائـرة شـرق خـان يونـس، تكلّـم عبـد الرحمـن مـع جـاره الـذي يملـك سـيّارة، لكنّـه أخبـره أنّـه لا يملـك وقـودًا لهـا، خمـس سـاعاتٍ لـم يسـتطيعوا فيهـا فعـل شـيء، لمـاذا كانـت النّسـاء قديمًـا تلدنـا دون مستشـفيات؟ وأيـن هـي الدّايـة كـي تُخلّصهـا مـن هـذا العـذاب؟ وتخلصنـا مـن زوبعـة الحصـار؟

توقّفـت علياء عـن الصّـراخ فجـأةً، شـحب وجههـا وفقـدت الوعـي، جـنّ جنـون يـزن وأخـذ يتّصـل ويتّصـل حتـى سـمع صـوت الإسـعاف بالخـارج، كان الإسـعاف قادمًـا مـن الشـرق يحمـل مصابًـا، فأوقفـه يـزن وقـد تجـاوز المسـعف عـن قوانيـن خدمـة حمـل المصابيـن لأجـل حالـة علياء الصحيـة، وضـرورة نقلهـا إلـى المشـفى.

نقلوها فورًا إلى المشفى ودخلت غرفة الولادة فجرًا، ولحقت بها الأمّ وليان مع صحوة الصباح وحركة السيارات.

علمت الأمّ سجى بأمر فاطمة، وقد فرحت لذلك الخبر الذي ستنقله إلى أحمد، وتركت المهمة لزوجها عبد الرحمن الذي بلّغه البشرى، صحيح أنّه كان صعبًا عليه أن يستوعب ذلك، لكنّه خبرٌ مفرح لا محالة، وهكذا تدور السّاعة يومًا كاملًا تعيد ترتيب النّهار واللّيل، دارت نبضات قلبه ساعةً كاملة تمسح ما كتبه الفقد حنينًا يشبه ضباب الأمنيات، وطار من الفرحة وقال له: «سأسافر إليها، ستساعدونني، أليس كذلك؟ أنت أبي، أنتم أسرتي، ستساعدونني أليس كذلك؟» هيستريا الفرح أنسته أنّ الاحتلال الذي اجتاح رفح، قد دمّر المعبر، ويستحيل السّفر إلى أي مكان، أنسته أيضًا قلب ليان الذي تعلّق بها، وكان يفكّر بالتّقدم لخطبتها.

من الأناني هنا؟! إنّها الحرب التي تغتال مشاعرنا، بعدما توجّهها نحو أقدارٍ لا ترحم أحلامنا.

يزداد النّزوح إلى الجنوب، والمجازر في الشّمال تزيد، والعدوّ يضغط على السّكان ليكتظّوا في الجنوب، ويفترشوا الأرض، ويسكنوا الخيام.

الخيام لها لغةٌ تشبه صمت الحكايات، ولها أقلامٌ لا تكتب إلّا على القماش، كيف يمكن لهذا القماش أن يحفظ خصوصيّة

النّـاس؟ ويسـتر عـورات النّسـاء؟ لقـد ضـاع شـبابنا المراهـق فـي ثقـوبٍ تكشـف العـورات، وفـي حبـوبٍ تذهـب العقـول، وفـي ليـلٍ يطـول بـه التأمـل فـي السـراب، لـم تعـد الخيـام إلّا مشـهد تلفـازٍ أو ضـرورة إنسـان.

الخيمـة فـي الصيـف تشـبه بيـت الزراعـة المصنـوع مـن النايلـون الأبيـض، حيـن يدلـل الفـلاح حبـات الطماطـم فـي كومـة مـن الحـر، لتحمـرّ خجـلًا فـي النضـوج، ويسـارع هـو قطفًـا لهـا، ويتـرك مجـالًا لـدورة أخـرى فأخـرى لغيـر موسـمها الحقيقـي، ونحـن الحقيقيـون لا يكـون حصادنـا إلا انتهـاءً لموسـم حياتنـا.
كيـف ينضـج عقلنـا وتثمـر تصرفاتنـا فـي ظـل هـذا الحـر المشـبّع برطوبـة الجـو؟ كيـف يمكـن أن نطـرق بـاب النضـوج، وأن نكتمـل حمـرةً فـي مشـاعر تشـتعل بالحيـاة، وقـد أسـقط الأجـل أوراق مـن كان بهـا يظلـل الأقـارب والأصحـاب؟
فـي هـذا الاكتظـاظ البشـري، وتلاصـق الخيـام تكثـر التسـاؤلات عـن انكشـاف العـورات، وشـهوات الصيـف فـي حـر يضيـق بـه سـتر الأجسـاد. لـم أعـد أعـرف مـاذا أدوّن مـن ملاحظـات، مـا عـدت أميـز الضـوء وتسـليط الأقـلام، مـا عـدت أعلـم كيـف يمكـن أن أذكـر الخبايـا العالقـة علـى سـتائر الخيـام؟! وكيـف يمكـن سـرد الحكايـات المعتقـد بأنّهـا تختفـي بالهمـس فـي الـكلام؟!

فـي المشـفى بقيـت عليـاء لوقـتٍ طويـل دون ولادة فـي انتظـار انتظـام فحوصاتهـا، فحـص دمهـا سـتّة، حرارتهـا اثنـان وأربعـون، الأكسـجين منخفـض وجسـدها منهـك، تتصبّـب عرقًـا بسـبب حـرارة الجـوّ المرتفعـة، ولأنّ فحـص السّـيولة غيـر منتظـم، طلبـوا علاجًـا لسـيولة الـدّم لـم يكـن متوفّـرًا بالمشـفى، ذهـب يـزن للحصـول عليـه مـن الصّيدليـات المجـاورة.

طلـب الطبيـب نقـل دم مباشـر لهـا، وقـد تطابـق نـوع دم الأمّ سـجى مـع نـوع دمّهـا، فجلسـت بجوارهـا علـى كرسـيّ خشـبيّ عثـروا عليـه بأعجوبـة، وبـدأت عمليّـة النّقـل.

دخلـت العمّـة أمّ عليـاء فـي هـذه اللّحظـة تطمئـنّ علـى ابنتهـا، لـم تكـن كعادتهـا بالحواجـب الثّقيلـة، والجبيـن المجعّـد يطـوي عمـرًا مـن الغضـب، ولا تلـك النّظـرة الحـادّة التـي تواجـه فيهـا النّـاس، يكفـي أنّهـا ولأوّل مـرّة ألقـت التّحيـة علـى «سـيغال»، ولـم تنادهـا باسـمها العبـري مسـتهزئةً كمـا كانـت تفعـل سـابقًا، بـل نادتهـا بسـجى.

القليل من الانكسار يذيب بعض المشاعر القاسية...

الحـرب التـي أوقعـت بنـا الخسـارات المختلفـة، وأذلّـت النـاس نزوحًـا وحصـارًا أنهكـت الجميـع. لـم يعـد هنـاك متسـعٌ للخلافـات القديمـة، ومـا تـراه فـي أفعـال النـاس هـي ثـورات غضـبٍ كثيـرة عابـرة، هـي انفجـارات الضيـق والألـم مـن واقـع الحـرب المريـر.

جلست العمّة تمسك يد ابنتها، وتصبّر قلبها على آلام مخاضٍ تضاعف في هذه الظّروف الاستثنائية. لم يكن عبد الرّحمن يستطيع الحضور، وخاصّة أنّ قدمه لم تعد تحتمل المشي والوقوف، وكان لا بدّ من بقائه مع حفيده في الخيمة، وبقي أحمد معه أيضًا.

جهزت ليّان حقيبة الملابس الخاصّة بالولادة، وأحضرتها استعدادًا لدخول علياء إلى غرفة العمليّات، وما إن دخلت الغرفة، ووجدت عمّتها، اقتربت تمدّ يدها للسّلام عليها، سمع دويّ انفجارٍ هائل هزّ المشفى وأربك الجميع، سقطت سجى على الأرض من شدّة الانفجار، أسرع الأطبّاء إليهم، ورفعوا الإمدادات عنها، وحاولت ليان إيقاف أمّها، ولكنّها بقيت على الأرض تضع يدها على قلبها.

«ماذا حصل يا أمّي؟ هل أصبت؟»

«لا أعلم، صدري ضاق وقلبي يؤلمني»

رفعتها العمّة وليان وخرجتا إلى الممر، لكي يسمحوا للأطبّاء بمباشرة عملهم، بعد أن نقلوا علياء إلى غرفة العمليات.

دقائق وانقلب المشفى رأسًا على عقب، ازدحم المشفى بالمصابين، استنفر الأطبّاء والممرّضون وحتى النّاس العاديون، يساعدون في النّقل وتقديم الخدمات، الدّماء في كلّ مكان من نزيف الأجساد الممزّقة، ضجّت الممرّات بالصّراخ والبكاء الذي ينهزم أمامه عجز المشفى عن توفير الأسرّة، والإمكانات الطّبية اللّازمة.

وبينما كانت الطّواقم الطّبية تسعف المصابين، وقعت عين الأمّ سجى على وجه ابنها يزن محمولًا على أذرع الشّباب، صرخت فيهم وأوقفتهم، وجثت على ركبتيها صارخة، لم يبعدها طبيب، لم يحدّثها أحد، لم يتحرّكوا إلى أيّ مكانٍ يعالج جراحه، كانوا يعلمون أنّه فقد حياته.

الضيق الذي أصاب قلب الأمّ كان انفجارًا يصيب ابنها، فالمكروه الذي يصيب جسد الابن يفجّر قلب الأم.

سقوط سجى عن كرسيّها لم يكن من هزّة الانفجار، وإنما لمصيبة تراءت أمام أعينها، لكنّها ظنّت بأنّ انقباض قلبها وضيق صدرها كان وجعًا أو خوفًا على علياء، ولكن حينما رأت يزن علمت حقيقة الفقد وهول الكارثة.

اختاره الأجل قبل أن يهديه القدر هديّة مولد زوجته لمولودةٍ جديدةٍ أسمتها على اسم أمّه سجى، والتي لم تفرح بها الجدّة، ولم تكن نجاة علياء من موتٍ محتّم إلّا لتركها في حياة لا طعم لها.

اختار القدر أن يقصم ظهر هذه الأسرة، كما اختارت الحرب أن تقصم ظهر غزّة، أيام وأيّام من الصّيف الحار، ومن لهيب الخيام فوق رؤوس النّازحين.

كم مرة سيتعذّب النّاس؟ كم مرّة ستبكي العيون؟ وتفقد الرّوح الأجساد؟ كم مرّة سيحمل العقل حقائب الأفكار؟ ويذهب ويعود دون هدفٍ أو ملاذ؟ كم مرّة ستسقط فوق الذين يبعثون الأمل قنابل الانكسار؟

الأصعب في الموت هو الدفن الذي لا يختاره الأهل في هذه الحرب، لقد دفن يزن في دير البلح، ولم يدفن في مكان مولده أو مكان عيشه، سرعان ما صلّوا عليه صلاة الجنازة، حتى أنّ والده وابنه وصديقه لم يستطيعوا الالتحاق بالصلاة، فالحاضرون في المستشفى يضطرّون لإقامة صلاة الجنازة جماعيًّا على أرواح الشهداء، الذين لا يغسّلون كون الشهادة تحفهم، إذ لا تتسع الثلاجات لحفظ أجسادهم، ولا أمان للمحتل أن يترك لهم فرصة إقامة الشعائر الدينية المعتادة عند الوفاة.

أخّرت سجى دفنه حتى حضروا لنقله من المشفى إلى المقبرة، ووضع الثرى عليه ووداعه الوداع الأخير.

في هذه الحرب دفن البعض في مقابر جماعية دون وداع، ودفن البعض تحت الركام، والبعض أسفل الجرافات والدبابات، ودفن آخرون خارج فلسطين، وكأنّ النزوح كان للأموات أيضًا. يقتحم الجيش الإسرائيلي المقابر، ويقلّب الأرض مخربًا المدافن، ومخرجًا الأكفان، ليعاود أهالي الشهداء دفنهم في مكان آخر.

سقط عبد الرحمن منهارًا على أولاده الثّلاثة؛ أحدهم مصابٌ بفقد ولده، وبتر ساق زوجته، وآخر مسافرٌ في البحث عن مستقبله، بعيدًا عن رعايتهم وتوجيههم، ينتظر موعد الاختبارات النهائية، وثالثٌ شهيد أثقل بوداعه الحزن في قلبه الذي امتلأ بالدمع المحبوس، ليتعرّض لجلطةٍ قلبيّةٍ أسقطته بنصف جسد لا يقوى على الحركة.

وليـان هربـت مـن وجـع القلـب بسـبب انتهـاء علاقتهـا مـع أحمـد إلـى العمـل الصحفـي، تريـد مواجهـة الحـرب انتقامًـا لكشـف الحقائـق، وكتابـة المقـالات حـول وحشـية المحتـل.

لقـد ازداد اسـتهداف الصحفيّيـن والإعلاميّيـن فـي الفتـرة الأخيـرة، ليـس بالقنابـل فحسـب، وإنمـا بالسـجن ودفـع الغرامـات التـي كانـت تفـرض علـى المواطنيـن فـي الأراضـي المحتلـة، وعلـى كلّ مـن يعبّـر عـن اسـتيائه لقتـل الأطفـال والنسـاء فـي غـزة.

الصّدفـة التـي لا يعتـرف بهـا القـدر، يأخـذ بكـفّ ويعطـي بكـفٍّ أخـرى...

لـم تنقسـم غـزة إلـى أقسـام بفعـل الصواريـخ والدبابـات فحسـب، وإنمـا انقسـم أيضًـا الإنسـان بداخلـه؛ شـعورًا وتفكيـرًا، وأصبـح عالقًـا بيـن ضفّتـي الخيـر والشـر، كأنّـه يتأرجـح بأرجوحـة القـدر لا يعـرف أي مصيـر ينتظـره. الحـزن الـذي امتـلأ بـه قلـب أحمـد علـى فقدانـه ليـزن، الـذي عرّفـه علـى هـذه الأسـرة النبيلـة، قـد جعـل قلبـه فاتـرًا فارغًـا مـن العاطفـة وهـو يكلـم فاطمـة علـى الهاتـف، محـاولًا أن يسـتعيد معهـا ماضيـه.

لقـد أخـذ قـراره بالابتعـاد عـن هـذه الأسـرة التـي اعتقـد أنّـه أصابهـا بنحسـه، إذ كان سـببًا فـي كسـر قلـب ليـان، ودخـول الفقـد إلـى بـاب

ذاكرتهم. تركهم دون تردد بعد أن استسمح الأمّ سجى في قراره، وانضم إلى جيش النازحين على البحر، يحارب رطوبة الجو، وأمواجًا تغضب من العمق لتلتهم رمال الشاطئ مدًّا يعيد ترتيب الخيام إلى الوراء، ولكنه لم يقطع الاتصال بهم للاطمئنان.

كان سعيدًا جدًا حين علم أنّ عبد الرحمن اجتاز مرحلة الخطر، وخرج من أزمته القلبية بسلام. كانت سجى تدلّك يديه بحنان قلبها، وتمسح عن وجهه تجاعيد الحزن وثنية الشفاه، وتعيد له ذاكرة الحب التي حركت أنهار الدماء في خلايا اليد والساق، حتى استعاد صحته وعافيته وقدرته على الحركة، كأنّها نفخت من روح أملها كي لا يتركها تلاقي أحداث الحرب وحدها.

سيغال أو سجى اسمان لدولتين، لا ينتهي بينهما الصراع الجغرافي والديني والمجتمعي والأيديولوجي، لكنّها امرأة واحدة، وصراعها الأوحد بينها وبين الحياة؛ تريد لهذه الأسرة البقاء كما حاربت من قبل لبقاء هذا الحب، الذي حاربته أنواع الصراع السابقة، وكأنها تريد أن تخبر الحرب أنّ هذه القنابل التي تقتل الناس في الطرقات، لا تقوى على هزّ نخلة حبها الذي لامس السحاب.

القنابل تسقط على غزة تفجّر المصير، فتتناثر المصائر فوق المصير، جذوةٌ من النار تحرق القلوب، ولا يأنس أهلها بنار الدفء والرجاء من توقف الموت، جذوة من قصص القابضين على جمر الحياة، الباحثين عن أمل في النجاة.

لقد كان فضولي وأنا أكتب في الرواية يزداد حرفًا بعد حرف، جلست أهزّ رأس القلم في نقطة أغرسها عبر سقوطٍ عمودي على نهاية سطر في الورقة، وأنا أفكّر الخروج من مسرح الرواية إلى معقل الحقيقة، أريد أن أقابل هذه الأسرة التي اجتمعت عليها أهوال الحرب، وأعرف ماذا حلّ بها.

تذكرت ذاك الرجل الذي عرّفني بهم، وسحبني من بين أقدام المارة، قد يعرف شيئًا بعد كلّ هذا الوقت الذي فرّق بيننا، اتصلت به وكان من حسن حظّي أو من سوئه، أنّه أخبرني بأنّه التقى بأحد العمال الذين يعرفون عبد الرحمن جيدًا، وقد قابله مؤخرًا وعلم أنّهم يسكنون في خيمة بدلًا من منزلهم المدمر في خان يونس، طلبت منه إرسال رسالة تفصيلية بالعنوان، وحين وردتني الرسالة لم أنتظر للحظةٍ، أغلقت دفتر الرّواية، وانطلقت إلى هناك فورًا.

بحثت طيلة الطّريق عن نهايةٍ للرّواية، أفكّر كيف يمكن أن تنتهي الحرب، وكيف يمكن أن نغلق مأساة حربنا المفتوحة، كيف نكوي جرحًا، ونفتح أفقًا لتنفس الأحلام والقنابل تحاصر أمنياتنا؟ ذهبت أبحث عن حقيقةٍ أختم بها روايتي، فلا أخدع بها القارئ، وأصوّر له أيّ بطولةٍ يمكن أن تفرزها هذه الحرب.
حين وصلت إلى خان يونس واقتربت من مكان سكن الأسرة، دخلت إلى ساحة كبيرة كثيفة الخيام، فيها ممرات من المياه العكرة كأنها مصارف عنكبوتية، ورأيت عددًا كبيرًا من الأطفال

الحفـاة يلعبـون، يركـض بعضهـم وراء بعـض، سـألت أحدهـم عـن عنـوان الأسـرة فأشـار إلـى أنّهـم يسـكنون بيـن هـذا الزّحـام، خطـوت متـردّدًا نحـو مصيـر هـذه الأسـرة التـي كتبـت عنهـا، توثيقًـا لأحـوال الأسـر الفلسـطينية المختلفـة فـي قطـاع غـزة الواقعـة تحـت وطـأة هـذه الحـرب، لكـن القنابـل تسـاقطت فجـأة فـوق رؤوس هـذا الزحـام، فاهتـزت الأرض وتناثـر كلّ شـيء.

النهاية

شكر وتقدير

***البقاء على قيد الكتابة كان يمدني بالشعور أنني**
ما زلت على قيد الحياة.
***كل الشكر لزوجتي وأولادي على احتمالهم الوقوف**
في طابور انشغالي عنهم.

تعريف بالكاتب

محمود أحمد البسيوني

مواليد لبنان 1982

فلسطين - غزة

لاجئ فلسطيني من بلدة سمسم

المؤلفات السابقة:

1- ديوان «حديث المجدلية» صادر عن دار نشر الكلمة، الطبعة الأولى- 2019م، ودار نشر ديوان العرب في جمهورية مصر العربية، الطبعة الثانية- 2021م.
2- ديوان «أضغاث عتاب» صادر عن دار نشر ديوان العرب في جهورية مصر العربية، الطبعة الأولى- 2021م.
3- رواية «أعجاز حب خاوية» صادرة عن دار مكتبة سمير منصور للنشر والتوزيع الطبعة الأولى -2022م والطبعة الثانية- 2023م.
4- رواية «بين الكاف والنون» صادرة عن دار مكتبة سمير منصور للنشر والتوزيع الطبعة الأولى- 2023م.

بينما ينشغل العالم بأهوال صور القتل الجماعي والدّمار القادمة من غزة المكلومة، ثمة صور أخرى لا تصل إلى عيوننا، تتوالد عبر أدوات التعبير الأدبية والفنيّة المختلفة في مزجٍ ألمعي ما بين الواقع والخيال، حتى أننا لم نَعُد قادرين على التمييز بين ما نراه من أحداث وما هو متخيّل، من يسبق الآخر؟ لعلّنا أمام إبادة تتجاوز حدود الوضوح!

يأتي مشروع سلسلة "إصدارات من غزة" في وقت نحتاج فيه إلى تسليط الضوء على الأبعاد الإنسانية الصارخة لهذه الحرب التي يعيشها شعبنا الفلسطيني، فهذه الحرب ليست مجرد أرقام أو تقارير إخبارية، بل هي مجموعة من القصص الحيّة، والتجارب اليومية، والأحلام المكسورة التي تشكل حياة الأفراد والعائلات في غزة. في كل يوم، يتعرض الفلسطينيون لأهوال تفوق التصور، لكنهم يظلون متمسكين بالأمل والإبداع في مواجهة الصعوبات.

من خلال هذه الإصدارات، سنستكشف تجارب إنسانية فريدة مغلفة بالفن والأدب كمصادر للمقاومة، وسنسلط الضوء على تأثير الإبادة على الهوية الإنسانية الفلسطينية. سنتناول قصص الأفراد الذين يتجلى صمودهم في مواجهة التحديات، وكيف تعكس أعمالهم الفنية والأدبية معاناتهم وآمالهم.

أدعوكم جميعًا للانضمام إلينا في هذه الرحلة، لنعمل معًا على إيصال صوت غزة إلى العالم، ولنُظهر أن الأمل والصمود يمكن أن يكونا سلاحنا الأقوى في مواجهة الظلم.

وزير الثقافة

أ. عماد عبدالله حمدان

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان